النوس
أو
الذهن

بقلم

الراهب يوحنا كوتسونيس

نقله عن اليونانية

الأب منيف حمصي

منشورات

دير القديس غريغوريوس بالاماس

سالونيك

النوس
او
الذهن

بقلم

الراهب يوحنا كوتسونيس

نقله عن اليونانية

الأب منيف حمصي

منشورات

دير القديس غريغوريوس بالاماس

سالونيك

جدول المحتويات

• الاهداء: إلى جميع الرهبان والراهبات المجاهدين والمجاهدات في الكنيسة، مع محبتي وتقديري سائلاً أن يصلّوا من اجلي.

• المقدمة ٦

• **القسم الأول:** ١٠

١- سقوط الذهن قبل المسيح وبعده ١١

٢- الذهن اليقظ حارس جيد ١٦

٣- ذاكرة وذكريات ٢٥

٤- التنقية والاستنارة بالصلاة ٣٢

٥- الذهن الغارق في الأهواء - والذهن العديم الهوى ٤١

٦- الذهن في التجربة، والذهن في المعركة ٤٥

٧- الذهن في الثيوريا، والذهن المتأله ٥١

• **القسم الثاني: اقوال بعض الآباء القديسين في العقل الروحي** ٥٥

١- القديس ذياذوخوس فوتيق ٥٦

٢- الأب اشعيا ٥٩

٣- القديس نيقوديم الآثوسي ٦٧

٤- القديس غريغوريوس اللاهوتي ٧٢

٥- القديس باسيليوس الكبير ٧٣

٦- القديس غريغوريوس النيصصي ٧٤

٧- القديس كاليستوس كسانثوبولس ٧٥

٨- القديس اسحاق السرياني ٧٧

الذهن

«نور للنفس هو الذهن الذي يتمتع بمحبة الله. ومن يقتني مثل هذا الذهن، هو إنسان مستنير القلب، ويستطيع من داخل ذهنه.هذا، أن يعاين الله»

(الفيلوكاليا ، الجزء الأول)

المقدمة(١)

يتألف الانسان، خليقة الله العظيمة، وذروة الخليقة، من مادة وروح، من نفس وجسد. أما ارتقاؤه من النطاق المادي، إلى النطاق اللامادي (الماورائي)، من العالم المحسوس، إلى العالم غير المحسوس، فيتحقق بفعل قوة النفس، أعني بها الذهن(٢) أو النوس.

وأساس الايمان في كنيستنا الارثوذكسية، هو أن الانسان مخلوق على صورة الله المثلث الاقانيم. فالله المثلث الاقانيم، هو: ذهن (الآب)، كلمة (الابن)، والروح القدس.

---

(١) تبدو الصفحات (٦و٧و٨) من الكتاب على شيء من الصعوبة، فليصبر القارئ، (المعرّب)

(٢) الذهن هو أسمى ملكات الشخصية الانسانية. به، ومن خلاله، يتنقى الانسان ويتطهّر. وهو، أي الذهن، يعرف الله، أو الجواهر الداخلية أو المبادئ التي تسيّر المخلوقات، بفعل إدراك مباشر، أو ادراك روحي. ولا يعمل الذهن عبر صياغة مفاهيم عقلية مجرّدة، من خلالها يأتي إلى خلاصات يصار إليها بفعل العقل الاستقرائي والتحليلي، إنما يدرك الحقيقة الالهية بالخبرة المباشرة، أو المعرفة البسيطة، حسب تعبير القديس اسحاق السرياني (راجع الفيلوكاليا، المجلد الأول، لندن، ١٩٧٩ ص: ٣٦٢).
الذهن هو قوة الذهن. انه القوة الفاعلة في النفس، الأمر الذي يعرف في الكتاب المقدس باسم: القلب.
نلفتكم ان كلمة «ذهن»، «نوس»، استعملت بدل كلمة intellect، ومن خلال مقاطع اقتبسناها عن كتاب التريودي، والفيلوكاليا، والسلم إلى الله.
لقد اصطلح عدد من المترجمين ترجمة «ذهن»، «نوس» بـ mind أو intellect. أما في اليونانيّة فاللفظة الاساسية هي Nous = نوس. الا أننا، وفي بعض الاحيان عمدنا إلى لفظة «عقل»، أو سواها من الألفاظ المذكورة، تسهيلاً لمعاني اللفظة كما وردت في غير سياق.

«العقل الذي لا بدء له، ولد الكلمة ولادة يتعذّر النطق بها. وبَثَقَ الروح المساوي لهما في القوة. لذلك نقر معترفين أن الله، سيد الكل، هو ثالوث متساو في الجوهر». (قانون الثالوث الاقدس، صلاة نصف الليل، صباح الأحد، الأودية الرابعة، اللحن الرابع.)

والانسان أيضًا ، هو ثالوث على صورة الله. وهو أيضًا عقل وكلمة وروح. وسمو الانسان هو في كونه خليقة ثالوثية. فالله خلق الانسان بمحبة الهية لا حدود لها. خلقه على صورته، وجعله بالنعمة الهًا (على مثاله). ومن منظور هذا السمو الانساني، يمكننا أن نلاحظ الفرق الهائل بين الانسان والحيوان.

ورغم أنّ النفس واحدة، الا أنها بحسب تعليم الاباء القديسين، منقسمة إلى قوى ثلاث: (العاقلة، الشهوانية، والغضبية). الذهن هو الاداة التي بها تعمل القوة العاقلة في الانسان.

سأل واحد من الناس ناسكًا، فقال:

يا أبت، ما هو الذهن؟

فأجابه الناسك ببساطة مميّزة فقال:

حسنًا يا بني، ماذا يحصل لو غاب ربان السفينة؟

هل تقوى السفينة على الوصول إلى شاطئ الامان؟ الا تكدّها الامواج وتحطمها؟ الأمر نفسه يقال في الذهن. انه ربّان سفينة الانسان.

وتتألف القوة العاقلة في الانسان، بحسب تعليم القديس غريغوريوس بالاماس، من: فكر وحدس، وهذه القوة هي الذهن. الذهن هو القوة التي تفعّل الفكر والحدس. وتعرف هذه القوة، في الكتاب المقدس، باسم القلب. القلب هو في موقع الصدارة بين سائر

قوى النفس، لهذا يقال ان النفس البشرية الهية في هيئتها وشكلها deiform (راجع الفيلوكاليا، المجلد الرابع، القديس غريغوريوس بالاماس).

الذهن هو القدرة على المشاركة والاتحاد في الحياة الالهية. وتارة يسمى الذهن: ثيوريا، أو معاينة الله. وللفظتين معنى واحد، فمعاينة الله هي نفسها الاتحاد به. لهذا فقد اصطلح في القاموس الابائي أن يسمى الذهن «عين النفس»، «أو العين الساهرة» أو «العين ذات الثيوريا»، أو «القسم العاقل من النفس».

ولأن عند الانسان ذهنًا، فهو مخلوق على صورة الله. وذهن الانسان عامل أو عنصر خلاّق في كل وجوه الحضارة الانسانية. ولكن لمن المأساوية حقًا أن يقال، حين ينتفي الحس العاقل والتمييز، في الذهن، ان هذا الذهن أعمى، أو أنه خرج على ذاته بالكلية، كما سنرى تباعًا، وانه يكوّن علاقات مطلقة مع الخليقة، ومع جوهر الخليقة الحسي رغم أن جوهره (أي جوهر الذهن)، يقظ وصاح. انه يسبح في بحر من الزهو والمجد الباطل، ولا يعود، أو يبقى ذهنًا بحسب نشاطه، بل يصبح ذهنًا في نشاط روحي وطبيعي، أي أنه يصبح كيانًا غير عاقل irrational أي على شاكلة أجهزة الكومبيوتر التي لاحياة فيها، هذه الاجهزة التي نراها تبدع ازهارًا اصطناعية بدون شذى، فلا تكون تباعًا أكثر من آلة غاشمة عمياء.

وذهن الانسان هو (بحسب أحد الرهبان المعاصرين) اشبه بعصفور يطير في السماء، فتارة يحلق عاليًا، وطورًا يطير على علو منخفض. من الناحية الأولى، ينشغل الاباء القديسون في الفيلوكاليا، بارتقاء النفس، او ارتقاء الذهن. ومن الناحية الاخرى، تراهم يتأملون في سقطات الذهن، إلى ما دون الحضيض، بفعل الاهواء.

ويمكن عيش التأمل، أو تركيز الذهن، عند الذين ينشغلون باليوغا (ديانة شرقية لاعلاقة لها بالمسيحية)، إلا أن هذا عديم الثمر، ولاطائل تحته. الذهن يبقى ذهنًا، فقط من خلال منهجية محددة. إلى هذا الحد يمكن اعتبار كل المسعى البشري، بمثابة محاولة جديرة بالثناء يتم انجازها بالجهد البشري فقط. لهذا السبب فإن اليوغا تُشجب من البداية. الذهن يتوقف في منتصف الطريق من أورشليم إلى اريحا، فيقع بين اللصوص الذين يعرّونه من ثيابه ويجرحونه ويتركونه على قارعة الطريق بين حي وميت (لوقا ١٠: ٣٠-٣١).

وكل هذا يحصل لأنه يسير بلا هدف، فهو يتوخى استنارة لا وجود لها. ومن جراء هذا، يتيه ويضل، كونه يتّحد في الواقع بشيطان يسعى إلى تقديم الزيف له على أنه حقيقة، والحقيقة على أنها زيف ورياء، وذلك عبر تحوّله (أي ابليس) إلى ملاك من نور، على نحو ما يعلّمنا الالهي بولس في (٢ كور ١١: ١٤).

لذا فقد رأينا أنه من الضرورة بمكان، أن نكرّس الكتاب الثاني(١)، في هذه السلسلة، (مواضيع فيلوكالية)، لهذا الموضوع الكبير والمهم. وإننا نطلب بإلحاح، وحرارة، من قرّائنا الاعزاء، أن يصلّوا من أجل ضعفنا، إلى الرب، كي ينقي ذهننا من كل دنس بشرة وروح، مكمّلين القداسة بمخافة الله (٢ كور ٧: ١).

---

(١) هذا هو الكتاب الثاني الذي يطلقه واضعه الراهب يوحنا تحت عنوان (النوس). أما الكتاب الأول في هذه السلسلة فهو: (اليقظة والصلاة) الذي قام معرّب هذا الكتاب بنقله عن اليونانيّة قبل عشر سنوات.
والكتاب الثاني، يسير في خط الكتاب الاول، من حيث اعتماد واضعه النهج الابائي، فتراه يقتبس عن الادب الفيلوكالي بغزارة، ويعرّج على العهد الجديد والقديم، ويغرف كثيراً من عيون الادب النسكي الارثوذكسي لعمالقة من أمثال: يوحنا السلمي، وذياذوخوس فوطيق وآباء البرية ونيقوديم الاثوسي، وغريغوريوس اللاهوتي والنيصصي وباسيليوس الكبير وكالستوس كسانثوبولس واسحاق السرياني وسواهم.

القسم الأول

الفصل الأول:

سقوط الذهن قبل المسيح وبعده

إن قدرة الذهن الانساني على معاينة الله، ليست هي القدرة الاساسية والاسمى، وحسب، بل هي في الوقت نفسه المرمى الاخير الذي من اجله خلقه الله. هذه تحديداً، كانت مغبوطية الجدين الاولين آدم وحواء في الفردوس على نحو ما يعلّمنا الآباء الاطهار والقديسون: أعني بذلك أن يرى الجدان الاولان الوجه العظيم البهي والمشوق إليه، المنظور وغير المنظور، أي الخالق الذي يُدنى منه، ولا يُدنى منه بآن. الله نفسه ليس جوهراً غير منظور وغير مدنو منه وحسب، إنما هو، وفي الوقت عينه، قواه الالهية غير المخلوقة التي يمكن الدنو منها ومقاربتها.

قلنا ان الذهن عين النفس. بيد أن وظيفة الذهن تختلف عن وظيفة العين الجسدية، فالعين الحسّية تستطيع أن ترى كل الأمور المنظورة، الا أنها لا تستطيع أن ترى نفسها. الذهن، على كل حال، يعمل عبر حركات ثلاث.

١- حركة مباشرة

٢- حركة دائرية

٣- حركة لولبية. كذلك يمكنه أن ينكفئ على نفسه، وذلك كي يرى نفسه.

دعونا الآن، وببساطة، نتأمل فيما يعنيه القديس ديونيسيوس الاريوباغي عندما يتكلم عن حركات الذهن الروحي (راجع بهذا الصدد «في الاسماء الالهية» ٤، ٩، ٣ - ٧٠٥ آ. ب.).

يرى ذهن الانسان، بفعل الحركة المباشرة، الأشياء والوجوه، وذلك عبر الحواس والصور والرموز المخلوقة، وذلك بالخيال، أو عبر مفاهيم مختلفة يقول بها.

ولما كان الذهن يبقى هادئًا، في حركته المباشرة، فهذا من شأنه أن يجعله قابلاً للادراك الحسي او الشهواني، أو بخيلاً، أو مدّعيًا، أو طموحًا، أو عابدًا للجسد، أو تكنولوجيًا، أو أحمق، أو همجيًا، أو شريرًا. وعلى سبيل المثال، يرى الذهن خلائق الله، رجلاً أو امرأة، فيقع في الأسر. يرى المال، فيخضع له. يرى الوجه التقني للآلة، فيُستعبد له. تاليًا يصبح الذهن رهينة لكل ما يخضع للحواس.

وفي النهاية، تنتزع حركة ذهننا المباشرة جمالها الطبيعي، وتحوّله إلى ذهن ترابي ودنيوي، كونه يتعلق بالأرض، ويختزن قبح الاهواء. والطروبارية من الاودية الثانية في القانون الكبير، تصف ذلك، أدبيًا، على النحو التالي:

«لقد سوّدتُ جمال نفسي بلذّات الاهواء، وصيّرت جميع عقلي ترابيًا بالكلية». ما هو جمال الذهن؟ انه النعمة الاولى التي بها جمّل الخالق خليقته (الانسان). جمال الذهن هو من التأمل في الجمال الالهي والبهاء القائمين في شخص الله.

في الفردوس، زوّد الله آدم وحواء بذهن قادر على معاينة الله، لا بالحركة الدائرية، بل بالحركة الثالثة (اللولبية).

أما الحركة الدائرية في الذهن، فهي التالي: عندما يعود الذهن إلى ذاته، يجد السماء التي تكلّم عنها الرب: «ملكوت الله في

قلوبكم» (لوقا ١٧ : ٢١). إن هذه قوة فائقة بها يستطيع الذهن أن يسود نفسه ويتجاوزها بآن، أو أن يستخدم نفسه كموطئ قدم ليبلغ إلى الاتحاد والثيوريا والمشاهدة، وذلك عبر قوى الله غير المخلوقة.

بهذا الصدد يسوق القديس غريغوريوس بالاماس مقطعًا للقديس باسيليوس الكبير: «الذهن غير المشتّت خارج ذاته أو من أجل أمور خارجية وسطحية، ورموز وصور، ينكفئ إلى ذاته، ومن خلالها يرقى إلى الله».

والحركة الدائرية في الذهن ثابتة، ولا تقع في الضلال الشيطاني بسهولة، بل على العكس، يصبح الذهن أسير الشَرَك، بفعل الحركة اللولبية (وهي الحركة التي بين الحركتين: الدائرية والمباشرة). بالحركة اللولبية عاين ذهن آدم وحواء الله في الخليقة، ورفعا إليه التسبيح والتمجيد. بيد أن ابليس نصب الفخ واجتذب الذهن من الخالق إلى المخلوق، أي إلى ثمرة الشجرة. وهكذا دفع بآدم وحواء إلى الابتعاد عن الخالق، ونسيان وصاياه. وسقطة الذهن قبل المسيح، كانت سقطة عمياء، بدأت بالحركة اللولبية لتنتهي بالحركة الدائرية. السقطة هي انجرار وانحدار نحو الخليقة. وبهذا الصدد، يقول القديس اندراوس الكريتي:

«لقد نظرتُ إلى جمال الغرسة، فانخدع عقلي بها. لذلك صرت خازيًا عريانًا». (القانون الكبير، الاودية الثانية)

لكن بمجيء الخالق إلى العالم، وبسر المعمودية المقدسة، بات بمقدور كثيرين من الذين اعتمدوا في المسيح، أن يلبسوا المسيح (غلا ٣ : ٢٧). وكثيرون من الذين لبسوا المسيح، لبسوا - في ذلك اليوم البهيج - عقل المسيح أيضًا. الاّ أن الاختيار، الخطيئة، الاهواء، وابليس، كلها معًا اظلمت العقل ولوّثته وانحدرت به من الخالق الابدي الذي لا يموت، إلى الخليقة المتحوّلة والزائلة. بهذا الصدد

يقول القديس مكاريوس المصري انه بعد المعصية، صار ذهن الانسان كالعصافير التي لا تقوى على الطيران لمسافات بعيدة، ولا تقدر أن تطير الاّ على علو منخفض فوق الارض.

سأل مرة بعض الاخوة القديس سلوان، قائلين:

كيف كانت حياتك؟ وما هي الجهادات التي تكبدتها حتى بلغت إلى هذه الحكمة؟

فأجابهم وقال:

في الحقيقة يا اخوتي، لم أترك في قلبي فكراً يسيء إلى الله.

الذهن الطاهر الذي لا يسيء إلى الله، ولا يجرحه، هو أشبه بالعين التي ترفض أدنى ذرّة غبار في داخلها. على الذهن تعتمد قوى النفس كلها. ولهذا عينه يقول ربنا: «إذا كانت عينك بسيطة، فجسدك كله يكون نيّراً. لكن إذا كانت عينك شريرة، فجسدك كله يكون مظلماً» (متى ٦: ٢٢-٢٣).

لقد سقط عقل الانسان المعاصر في خطيئة آدم نفسها. اتجه عقلنا شطر الخليقة، وصارت فيه استعدادات شريرة أثيمة، لا تُقيَّد، ولا تُحصى. من هذا القبيل، فإن ذهن الانسان البعيد عن معاينة مجد الله، أصبح شيطانيًا وحيوانيًا تسوده الاهواء والانانية، فأظلم، وصار قاتمًا قصير النظر، وضعيفًا.

وعندما ينفصل ذهن الانسان المعاصر مبتعداً عن ذاته، ومستخدمًا قواه الخلاّقة الهائلة في عطش لا يوصف إلى الخليقة، وفي جنون دائم نحو تكنولوجيا صمّاء لا حياة فيها بلغت ذروة الابداع، عندها يجهل نفسه، لا بل يصبح لامباليًا بها، وناسيًا أنها على صورة الله. وعن غير وعي، يبغي الذهن تأليه ذاته، لا بفعل معاينة الله، بل بفعل الانكفاء إلى حدود الخليقة والأشياء المادية.

والارتقاء الدنيوي في الذهن، محروم من البهاء والمعاينة الالهية والنور الأزلي. وهذه الحالة، (في الذهن)، شيطانية وعمياء، وقد جرّت الانسان في زماننا إلى سقطة جديدة، والى سبي ذاتي من فردوس المسيح، الكنيسة.

لقد جُرّب ذهن الانسان، للمرة الثانية، بالتجربة ذاتها، تجربة تأليه الذات، فأذعن إلى محورية الأنا القاتمة، وضلّ في متاهات الخداع والفلسفة الباطلة، وفي معارج علم لا نور فيه، وغرق في يمّ التكنولوجيا، دون أن يكون عنده مجذاف. ومن جديد، نسي الذهن السبيل إلى التأله الحقيقي.

ان كل الخيرات والممتلكات والمقتنيات، وكل دنيا العلوم والتكنولوجيا، كان من الممكن أن تكون مجدية ومفيدة، لو أن ذهن الانسان بقي مركّزًا في ذاته بفعل كونه إلهًا بالنعمة، وقادرًا أن يعاين الله. كان من الممكن أن يكون كل شيء حسنًا، لو أن الانسان لم يخرق توازن القوى في نفسه. كان من الممكن أن يكون كل شيء حسنًا، لولا سقطة الانسان. كل شيء كان، ليكون نافعًا، لو كان الذهن صحيحًا ومعافى. وكما أن ابليس تنكّر في هيئة الحية ليخدع الجدين في القديم، هكذا الآن، فإنه يتنكّر بالتكنولوجيا، وبالمنجزات المادية، ليقود الانسان إلى سبي جديد، وإلى تعاسة جديدة. فمغبوط الانسان المعاصر الذي يضع ثقته بالرب، لأنه يكون جبلاً لا يتزحزح ولا يهتز عند هجمات ابليس:

«ان المتكلين على الرب يماثلون الجبل المقدّس، فلا يتزعزعون بهجمات بليعال» (المعزي، الانتيفونا الثالثة، اللحن الثاني). مغبوط من يقدر أن يقول:

العدو لا يُخضعني بعد اليوم مضللاً إياي باسم تألهي، فالمسيح ألّه الطبيعة البشرية، وفتح لي الطريق إلى الحياة الحقيقية.

الفصل الثاني

الذهن اليقظ حارس جيد

سأل سائحان راهبًا آثوسيًا وقالا له:

إلى أي حد نحن مسؤولون عن الافكار التي تهاجم ذهننا؟

أجابهم الراهب وهو يستخدم صورة جميلة وموفّقة:

تعبر الطائرات فوق منسكي كل يوم، ولا أستطيع أن أمنعها من ذلك. تاليًا لست مسؤولاً عن ذلك. لكن مسؤوليتي تبدأ فيما لو شرعت في بناء مطار. هكذا، فإن قبول الهجمات الشيطانية يحتاج إلى موافقة، وهذه يقابلها كلامي عن المطار.

يقول القديس ذياذوخوس فوتيق، في المجلد الاول من الفيلوكاليا، وفي معرض كلامه عن اليقظة وحراسة الذهن من الافكار الشريرة والصور الشهوانية، ما يلي:

«الذين يحبّون ملذات الحياة الحاضرة، يعبرون من الافكار الشريرة، إلى الخطايا الفعلية. وإذا كان يعوزهم التمييز، فإنهم يحوّلون أفكارهم الخاطئة إلى كلمات شريرة، أو أعمال دنسة. ومن الناحية الثانية، فإن الذين يتوقون إلى الحياة الرهبانية، يجاهدون، بادئ ذي بدء، ضد الأفكار الخارجية، ومن ثم ينتقلون للجهاد ضد الأفكار الشريرة والكلمات الخبيثة. فالشياطين عندما تجد الناس - الذين يفرحون بالاساءة إلى القريب - عاكفين على أمور تافهة،

وأحاديث حمقاء لا طائل تحتها، ولا جدوى منها، ويضحكون حيث لا ضرورة للضحك، ويغضبون بدون ضبط للنفس، أو يتوقون إلى المجد الفارغ، فانها سرعان ما توحّد جهودها لتنقضّ على هؤلاء الناس . . . . . . أما الذين يتوقون إلى الحياة الفاضلة، فينبغي الآّ يطلبوا المديح، وان لا يشغلوا أنفسهم مع أناس كثيرين، وأن لا يسيئوا لأحد، حتى ولو بدا انه يستحق الاساءة، والاّ يكثروا من الكلام حتى ولو توفرّت فيهم الفصاحة في موضوع ما. لأن الكلام الكثير يشتّت الذهن، ويحيله كسولاً لا في العمل الروحي وحسب، إنما يسلّمه إلى شيطان التواني أيضًا، وشيطان التواني هذا يبادر توًا إلى اضعاف الذهن، كي يحيله إلى شيطان الاكتئاب والغضب. . . . . .»

لذا ينبغي على الذهن أن يكرّس نفسه بالكلية لحفظ الوصايا المقدّسة والتأمل العميق برب المجد. لأنه مكتوب: «من يحفظ الوصايا، لا يعرف الشر» (الجامعة ٨ : ٥). أي أن الذهن لن ينزلق إلى متاهات الكلمات السفلية والافكار الدنيئة. . . . وعندما يشعر القلب من جرّاء سهام الشياطين، بألم ملتهب، الأمر الذي يشعر به كل من يتعرّض للهجوم ، فإنه يحس وكأن السهام هذه حقيقية. وبنتيجة ذلك تمقت النفس الاهواء مقتًا لاهوادة فيه، وذلك لأن النفس كادت أن تبلغ النقاوة. وإذا لم تتألّم النفس كثيراً، بسبب عار الخطيئة، فإنها لن تفرح إلى الملء ببركات البر. إن من يروم نقاوة قلبه، يحفظه ملتهبًا على الدوام، وذلك بالعكوف على ذكر الرب يسوع المسيح وجعله دأبه وديدنه كل حين. والذين يرومون الانعتاق من الفساد، عليهم أن يصلّوا، ليس فقط بين حين وآخر، بل يجب أن تكون صلاتهم كل حين. ينبغي أن يسلّموا أنفسهم للصلاة على الدوام، منتبهين لذهنهم حتى ولو كانوا خارج مكان الصلاة. مثال: عندما يريد المرء أن

يمحّص الذهب، لكنه في الوقت نفسه يسمح لنار الاتون أن تهدأ قليلاً، ولو إلى حين، فإن الذهب سيقسو لا محالة. هكذا أيضًا فإن من يمارس ذكر الله بين الفينة والاخرى، فسرعان ما يفقد، على المدى الطويل، ما يرجو أن يفوز به في الصلاة. والعلامة في من يطلب القداسة، ان قلبه سيحرق كل ما هو دنيوي من جراء المواظبة على ذكر الله كل حين. وهكذا فالشيطان سيحترق في نار ذكر الرب، تدريجيًا، فتتعافى النفس تمامًا، مستعيدة بهاءها الطبيعي، مع نصيب أكبر من المجد» (الفيلوكاليا، المجلد الاول، القديس ذياذوخوس فوطيق، لندن ١٩٧٩).

الذهن اليقظ يحرس باب النفس - كونه ساهرًا - فيغلق بابها دون الرغبات السمجة والرديئة.

ومهما كانت درجة يقظة الذهن، فهو بدون القوة الالهية، ودعاء اسم الرب يسوع، (السيف المتقلّب)، عاجز بالكلية عن حماية النفس من هجمات الافكار الشريرة.

إذًا، يقظة الذهن وصحوته يقترنان بالصلاة. والذهن ليس فيه القوة من ذاته للقيام بصلاة نقية، الا إذا استعان بملح اليقظة الذي من شأنه أن يبعد الافكار الشريرة الدنسة (فيلوكاليا، المجلد الاول).

سئل ناسك ذبل جسده بفعل الرياضات النسكية:

كيف تقضي وقتك في البرية يا أبانا؟

فأجاب قائلاً: يا ولدي، نحن ندعم الذهن ههنا.

إذًا، كيف يا أبت يستطيع المرء أن يبدأ بمراقبة الذهن؟ فأردف الناسك قائلاً:

«وجود الزهرة علامة على اقتراب أوان الثمر. أما الرقابة على الذهن، فهي من الاعتدال في الطعام، والشراب، مع رفض الافكار السمجة المختلفة وسلام القلب» (الفيلوكاليا، المجلد الاول).

حقًا ان الصوم والاعتدال هما الامران اللذان أهملهما الانسان المعاصر كمقياس حياة. الصوم والاعتدال في الطعام والشراب، يساعدان ليس على إخضاع الجسد، وحسب، بل يعملان أيضًا على تحرير الانسان من قيود الجسد الضاغطة. تاليًا، فإنهما يساعدان على استنارة الذهن. لقد أصبحنا اليوم جسداً، لأننا بدأنا نأكل اللحوم أكثر. لهذا السبب فإن ذهننا جسداني. الناس لا يصومون ولا يصلّون، ولا يشاركون في صلوات الكنيسة. لقد أصبحوا مفرطين في الدنيويات. ولما كان الجسد مرتبطًا بالذهن والنفس، فإن أحدهما يؤثر على الآخر. مثلاً، المعدة غير المعتدلة، تنتج تباعًا ذهنًا غير معتدل. ومن لا يشارك في صلوات الكنيسة، لن يكون عنده جسد مروَّض ومعتدل. الذهن المصلّي، جسده مستنير، وهذا يعني أن أفكاره تكون نقيّة ونورانية أيضًا.

إن للمشاركة في الاسرار الالهية، القوة على إنارة الذهن من خلال الجسد. ومن شأن الصلاة أن تنقّي الجسد أيضًا من خلال الذهن: «جسد الله يؤلّهني ويغذيني. يؤلّه الروح ويغذّي العقل» (إحدى صلوات الاستعداد للمناولة).

ويقول القديس ايسيخيوس الكاهن: «... لأنه عندما تنساب هذه النار إلينا، فإنها للحال تبعد الشياطين عن القلب، وتمحو الخطايا التي سبق أن اقترفناها، وهكذا يبقى الذهن حرًا من اضطرابات الافكار الشريرة. وإذا كنا على هذا النحو نقف عند مدخل قلوبنا، فنحرس الذهن باليقظة والرصانة عندما نتقدّم من المناولة المقدسة، فإن الجسد الالهي سينير ذهننا أكثر، ويجعله كالنجم ساطعًا» (الفيلوكاليا، المجلد الاول، ايسيخيوس الكاهن، لندن ١٩٧٩).

وفي هذه الحالة المغبوطة، يحذو الذهن حذو ملائكة الله غير الهيولية. وكما أن الملائكة لا تهتم بالطعام، ولا بأية حاجة أخرى،

هكذا، فالذهن غير المادي، لا يهتم بالامور المادية، حتى يبلغ فردوس السلام. وكما ان ملائكة الله غير المتجسّمة لا تهتم بالمال والغنى، هكذا أيضًا فإن الذين نقّوا عين النفس، لا يبالون بالاضرار التي يمكن أن تحدثها الشياطين، فهم يحلّقون ويحلّقون حتى يبلغوا السارافيم بتوقٍ عظيم يفيض من المحبة الكاملة (الفيلوكاليا، المجلد الاول).

وكل هذه يبلغها ذهن يقظ ملتهب ونوراني. ومن شأن اليقظة أيضًا انها تجعل الذهن حيًا وحارسًا صاحيًا وساهرًا على النفس، وذلك بفعل نعمة الصلاة غير المخلوقة.

بيد أن الشرط الاساسي لحراسة الذهن، هو طرح كل الاهتمامات العالمية التي تعمي الذهن وتغرقه: (لنطرح عنا كل هم دنيوي كوننا مزمعين. . . . . .).

وعندما ينعتق الذهن مما هو حسي، ويرتفع فوق الغمر الذي سبّبه ضوضاء الانشغال بالامور الدنيوية، فيعاين الانسان الداخلي بجلاء، فإنه أولاً سيعاين القناع الشنيع الذي أحدثه تجواله وطوافه، فيبادر توًا إلى تنظيفه بالنوح والبكاء. وبعد خلع الوشاح القبيح، حيث لا تعود النفس مشتّتة ومشغولة بالاهتمامات غير المهمة، وهي كثيرة، عندها تتجه هذه النفس شطر مستودع كنزها الداخلي، بسلام، لتصلي إلى الآب في الخفاء (الفيلوكاليا، المجلد الاول القديس غريغوريوس بالاماس).

قال مرة زخريا تلميذ الأب سلوان، للشيخ بينما كان في طريقه للقيام بعمل أُوكل إليه: دعِ الماء يا ابت، وبادر إلى ري البستان. فقام الشيخ وخرج وهو يغطي وجهه بقبعته بحيث انه لم يعد يرى الا وجهة سيره. هكذا كانت سقايته للبستان. وحدث أن صادف أخًا

آخر، فبينما لمحه الأخ عن بعد، أدرك ما كان الشيخ يفعله. ولما بلغ إليه، سأله الأخ: قل لي يا أبت: لماذا كنت تسقي الارض ووجهك مغطى؟

فأجابه الشيخ قائلاً:

لقد فعلت ذلك، كي لا ترى عيناي الاشجار، فيتشتّت ذهني في عمله.

في الحقيقة، هناك مقطع من ابوستيخن باللحن الثالث، هو بمثابة صلاة تُرفع إلى الرب من أجل جمع الذهن المشتّت من جراء النظر في الخليقة وكثرة الاهتمامات الصاخبة في هذه الحياة، وعودته، فلنسمعه:

«اجمع يا رب عقلي المتبدّد.
وطهّر قلبي البائر.
اعطني توبة كما اعطيت بطرس.
ونوحًا كما اعطيت العشار.
ودموعًا كما اعطيت الزانية.
وبصوت مرتفع، اصرخ اليك:
خلّصني يا رب لأنك رحوم وحدك ومحب للبشر».

وفي ثيوطوكية رائعة باللحن الرابع نتضرع إلى أم الله ونقول:

«اتضرع اليك بحرارة ايتها الكلية التسبيح،
فطهّري عقلي الملطّخ بكل أنواع الخطايا،
واجعليني مسكنًا جميلاً للثالوث الكلي
القداسة كي اسبحك.....»

ان كل محاولات الانسان لجمع عقله المتبدّد من الزرع الذي سقط على قارعة الطريق (متى ١٣: ٤)، وبين اشواك هذه الحياة، وعلى

الارض الصخرية، لا يمكنها أن تأتي بثمر، بدون عون من فوق. لهذا يقول القديسان اغناطيوس وكاليستوس: «يستحيل أن نرتفع بالذهن إلى فوق، بدون الروح القدس».

ومرة حدث في دير ايفيرون عندما راح الكاهن مقيم الخدمة يبخّر الاخوة، وهم في أماكنهم، ان مرّ بجوار أحد الاخوة، دون أن يبخّره. وبعد نهاية القداس الالهي، سئل الكاهن عن السبب الذي دفعه إلى الاحجام عن تبخير الأخ، فقال:

عندما بلغت إلى المكان الذي كان ذلك الأخ يجلس فيه، رأيته فارغًا، فتجاوزته. بعد ذلك دعوا الأخ المذكور، على حدة، وقالوا له:

نرجوك أن تنتبه لنفسك، لأن الكاهن متواضع، وكل ما يراه، فدونك التفسير الذي يعطيه.

فقال ذلك الأخ بانسحاق قلب:

ان الكاهن على حق، فأنا رغم أني كنت واقفًا في مكاني، الاّ أن عقلي كان يجول في املاك الدير.

منذ زمن بعيد، وفي مقبرة اسقيط القديسة حنة، وفي ركن غرفة صغيرة في المكان الذي يُسجى فيه الراقدون، عاش الكاهن الراهب متّى سيرةً نسكية، وكان يصلي إلى الله بلا انقطاع. وفي أحد الايام، سمع ضجة وراء باب القلاية، فنهض وتوجّه إلى الباب وفتحه، فرأى في المقبرة عدداً من الشباب، كانوا على شيء من الاناقة، وكانوا يحملون عظامًا راحوا يرتبونها في أماكنها. ثم رأى شبابًا آخرين كانوا يحملون بعض العظام ويرحلون بها. فتملّكه الدهش، سيما عندما كلّمه أحدهم قائلاً:

لماذا أنت مرتبك يا ابت؟ نحن ملائكة الرب وقد تلقّينا أمرًا من والدة الاله مريم كي نقوم بما تراه الآن. إننا ننقل عظام الذين امتلكوا

فضيلة عظيمة وجاؤوا بعقولهم الى جبل آثوس فنكمل مسيرة حياتهم ههنا، لأنهم لم يفلحوا في تحقيق مبتغاهم رغم توفر الرغبة القوية عندهم. لهذا فإننا نحمل عظامهم إلى هنا، كي تكون قيامتهم في جبل اثوس عند المجيء الثاني الرهيب. أما العظام الاخرى - أردف الملاك يقول - وهي التي ترانا ننقلها إلى العالم، فهي لأناس عاشوا ههنا بالجسد فقط، أما عقولهم فكانت في العالم كل حين، وقد ظلّوا على ما كانوا عليه، ولم تصلح سيرتهم رغم كثرة النصائح التي أسداها الاباء لهم، فقد أرادوا أن يوطّدوا العلاقة مع أهلهم ومع آخرين من أهل العالم. فهؤلاء لن تكون قيامتهم على جبل آثوس، عند يوم الدين، بل في العالم.

وآحسرتاه، أيها القراء الاعزاء، فحيث عقولنا، هناك نكون. وحيثما تغيب عقولنا، لا وجود لنا هناك. فليرحمنا الرب. لذا، علينا أن نجاهد لنحفظ أذهاننا وعقولنا في المكان الخاص بها، أعني بذلك الله والصلاة. أما عندما تهزمكم القوات التي تعمل من داخل، فجاهدوا للعودة، من أجل شفاء الذهن، من كل أشكال التشتّت.

أما القوى التي تعمل من الداخل، فهي الاهتمامات العالمية، والامور الدنيوية، ووجوه كثيرة تستميل الذهن وتستهويه بفعل الشياطين، وذلك كي تبتلعه بأشواكها، فتجعله محبًا وعديم الثمر.

يا سيدي، أيها الرب يسوع المسيح، ارفع ذهني إليك، فقد انزلق إلى أسفل. ارفعني من حفرة الهلاك ومن حضيض الهاوية.

سئلتْ الأم ثيوذورة مرة:

كيف يمكن لإنسان يعيش في الضوضاء، منصتًا إلى أخبار العالم، أن يجعل ذهنه في الله؟

فأجابت قائلة:

تماماً كما تجلسون إلى المائدة وهي تعج مزدانة بالاطباق، فلا تدانون اذا تناولتم مما هو عليها، شريطة أن لا تأكلوا بشراهة، هكذا أيضًا فعندما تصل المحادثات الدنيوية إلى مسمعك، بادر إلى رفع القلب توًا نحو الله، واحرصْ كي لا تنساه. بهذا الاستعداد والنية، عندما تسمعون بدون لذة، لن يصيبكم سوء أو مكروه (Evergetinos، المجلد الثالث).

ذاكرة وذكريات

تبدو الحرب الروحية عسيرة في بعض الاحيان، بدون هدنة. ففي هذه المعركة غير المنظورة هناك ذكريات شهوانية وشريرة. ومن المستحيل حقًا أن يغلب الانسان عبودية الذهن، وينعتق من قيود الذكريات الشهوانية، وما يصاحبها، بدون أصوام في الشدائد، واسهار، واحتمالات، ومحبة، مع رحابة وطول اناة.

ولا يستطيع الانسان أن يطيح بالافكار الشهوانية، الا اذا راقب رغباته، وقواه الغضبية. بالاصوام والاسهار وافتراش الارض، يغلب الانسان شهوته. أما قواه الغضبية فيسودها بطول الاناة، والاحتمال، والمسامحة، مع أعمال المحبة. بهاتين الشهوتين تتصل كل الافكار الشيطانية تقريبًا (الشهوة والغضب)، وذلك لأن هذه قادرة أن تقود الذهن إلى شفير الكارثة والهلاك. ويستحيل على المرء أن يسود هذه الاهواء الا بالارتفاع فوق التعلّق بالاطعمة والمقتنيات والعجب بالذات، لا بل فوق الجسد نفسه، وذلك لأن الشياطين تشنّ هجماتها علينا من خلال الجسد. اذًا ينبغي أن تقتدي أيها الانسان بالذين يطرحون أمتعتهم في البحر عند ظهور الامواج العاتية والرياح الهوجاء. لكن علينا أن ننتبه عندما نلقي عنا بعض الاحمال لئلا يشاهدنا الناس على نحو ما يقول الكتاب في (متى ٦ : ١). حذار من مثل هذا العمل لئلا تطيح بنا الريح العاتية المضادة التي يشنّها ضدّنا

شيطان العجب بالذات. لهذا يقول ربنا في الاناجيل بقصد توجيه ربّان سفينتنا، أعني به الذهن: «احترزوا أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس ليروا أعمالكم... والا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات» (متى ٦: ١). وأيضاً: «وعندما تصلّون، لا تكونوا كالمرائين الذين يحبّون الجلوس في المحافل، وفي زوايا الشوارع، وذلك كي يراهم الناس. الحق أقول لكم: انهم استوفوا أجرهم. وعندما تصومون، لا تكونوا كالمرائين الذين يعبّسون وجوههم كي يبدوا للناس صائمين. الحق اقول لكم انهم.......» (متى ٦: ٥)، (متى ٦: ١٦).

لاحظوا ههنا كيف يعالج طبيب الارواح والاجساد القوى الغضبية التي فينا. انه بأفعال المحبة، ينقي ذهننا. وبالصلاة والصوم، يجفّف شهواتنا. بهذه الفضائل يُنهض آدم الجديد المخلوق على صورة خالقه.

وبداعي اللاهوى، فإن آدم هذا ليس ذكراً ولا انثى. وبداعي فرادة الايمان، ليس هناك يوناني ويهودي، لاختان ولا قلف، لا بربري ولا اسكيثي، لأن المسيح هو الكل في الكل (راجع الفيلوكاليا، المجلد الاول).

ويلاحظ القديس ثالاسيوس أن هناك ثلاثة سبل، بفعلها تنهض الافكار فينا:

١- الحواس

٢- الذكريات

٣- الجسد

وبين هذه الثلاثة فإن الاكثر ضراوة هي الافكار المتأتية من الذكريات (الفيلوكاليا، المجلد الثاني، القديس ثالاسيوس).

جهاد عظيم يقوم في النفس ضد تذكّر الافكار الباطلة الشرير. انه جهاد تصلّي من أجله كنيستنا الارثوذكسية كل يوم بفم الكاهن الذي يترأس الخدمة. فالافكار والافعال والاقوال التي حصلت في الماضي، ها هي تعتلن على شاشة الذهن بوضوح، بصور مختلفة، وبفعل الذكريات. والشياطين غير المنظورة، تعمل في هذا السبيل بسهولة فائقة، مع براعة. وكل شيطان يعمل على حدة، وعلى نحو متميّز.

لقد جاهد القديس ارسانيوس جهاداً عظيماً في البرية كي يفوز بالغلبة على ذكرياته الشريرة المتعلقة بماضي حياته في العالم. فقد عاش في الماضي بالبذخ والترف والعطور والملذات وسائر شهوات الجسد. والقديسة العظيمة امنا مريم المصرية حملت صليباً عظيماً، وقد احتمل ذهنها آلاماً لا تطاق. وعندما شن الشيطان حرباً قاسية عليها، فقد كانت ضراوة هذه الحرب بفعل ذكريات الناس، وأحداث الماضي في حياة القديسة مريم المصرية. وقد جاهدت - هذه العظيمة - في الزمن، بمقدار ما انفقته على الملذات السامة والعابرة، وشهوات الجسد، سيما أنها عاشت في الاسكندرية في توانٍ وكسل.

كان الآباء القديسون يعون جيداً مخاطر التجارب المتأتية من الذكريات الشهوانية، لذا فقد صاغوا لنا عدداً من الصلوات بها طلبوا من الرب أن يعتقنا من هذه الذكريات القاتلة. وعلى سبيل المثال وفي صلاة الغروب تحديداً، وبعد أن يقول الكاهن: «لنحن رؤوسنا للرب»، يتلو بصوت مسموع الافشين التالي:

أيها الرب إلهنا يا من طأطأت السموات
وانحدرت لخلاص جنس البشر،
انظر إلى عبيدك، وإلى ميراثك

لأن عبيدك حنوا رؤوسهم واخضعوا
أعناقهم لك أيها القاضي المرهوب المحب البشر
غير منتظرين المعونة من بشر بل منتظرون
رحمتك ومتوقعين خلاصك . فاحفظهم
في كل حين ، وفي المساء الحاضر والليل
المقبل . مصونين من كل فعل مضاد شيطاني ،
ومن الافكار الباطلة والهواجس الخبيثة»

وتستخدم الشياطين الذكريات والصور من أحداث الماضي، ومن الاهتمامات الحديثة فينا، كذلك فإنها تعمد إلى أناس أساؤا الينا وذلك كي تشن حربها علينا في ساعة الصلاة. وكثيراً ما تطلب هدنة، وتوقف الهجوم، لتعاوده من جديد، وفي ساعة الصلاة، مستخدمة سهام الغضب تارة، مع سلاح الشهوة الجسدية طوراً وذلك لتلوّث الذهن.

فلنتصدّ اذاً لدنس الذكريات الشريرة بذكر الرب، طالبين إياه بمخافة الله وذكر اسم يسوع، وذكر آلام الرب، وذكر الموت.

سأل أخ شيخًا قائلاً:

ماذا أعمل عندما تهاجمني الافكار الدنسة؟

أجابه الشيخ قائلاً:

عندما تريد الأم أن تفطم ابنها، فإنها تضع على صدرها أعشابًا مرّة، وعندما يهمّ الطفل بالتقاط صدر أمه كما هي العادة، فإنه سرعان ما يُبعد رأسه ويتوقف عن الرضاعة، وذلك بسبب المرارة التي ذاقها.

عليك أنت أيضًا أن تستخدم شيئًا مرًا.

فقال الأخ: وما معنى هذا الكلام يا أبت؟

أجابه الشيخ قائلاً:

بدل الاعشاب المرة، اجعل في ذهنك ذكر الموت، ودينونة الحياة العتيدة.

لقد احتفظ كثيرون من الرهبان بجمجمة إنسان في قلايتهم ساعدتهم على تذكّر الموت كل حين. إن ذكر الموت يجمع الذهن، ويجعل القلب منسحقًا. كذلك فإن كثيرين من المسيحيين ارتادوا المقابر وانتفعوا كثيراً من جراء اعتماد هذه الفلسفة الالهية التي تحضّنا على التأمل بأباطيل هذا العالم. وقد انتفعوا من جراء معاينة الذهن لما يحدث وراء القبر.

وفي «السلّم» - الذي وضعه محلّل النفس البشرية القديس يوحنا السلمي - هناك مقطع من الفصل المتعلق بذكر الموت، هو مقطع ينمّ بحق عن حكمة هذا الانسان وسيرته الطاهرة:

«ان افعال الذهن النشيط العامل، كثيرة، أعني بها التأمل في الله، وفي حبه، وذكر الموت، وغيرة الشهداء القديسين، وحضور الرب شخصيًا على حد قول النبي المرنم: - «رأيت الرب أمامي في كل حين» - مع ذكر الملائكة القديسين، والخروج من الدنيا، واللقاء الرهيب، والدينونة والعقاب» (السلم، ذكر الموت: ١٥).

اخبرني مرة راهب مصري، فقال:

بعد أن وطّدت قلبي على ذكر الموت، لم تعد فيّ شهوة. ولـمّا كانت تظهر الحاجة لإراحة الجسد وتعزيته من الاوحال، كان ذكر الموت بمثابة حاكم لي. والملفت انني كثيراً ما حاولت أن أبعده عني، لكني لم افلح.

عاش ههنا راهب آخر في منطقة تدعى تولا، فكان دائمًا في

حالة انخطاف لدى تذكّر الموت. والاخوة الذين كانوا يشاهدونه، كانوا كل مرة يحملونه بهدوء بينما راح هو يغطّ في سبات عميق وكأنه مغمى عليه أو في غيبوبة. ولا يسعني الآن الاّ أن أبوح بقصة ايسيخيوس المتوحّد. عاش هذا الانسان في توان كثير فلم ينتبه البتة لأمور النفس. وحدث مرة انه مرض مرضًا شديدًا حتى بدا وكأنه يحتضر. فلما عاد إلى نفسه، توسل إلينا أن نتركه على الفور. ففعلنا نزولاً عند رغبته. فقام وأغلق على نفسه داخل القلاية طيلة اثنتي عشر سنة دون أن يكلم أحدًا. وكان لا يتناول الا الخبز والماء. فلما أغلق على نفسه، صار نشيطًا في الروح من جرّاء ما كان يراه في اختطافاته. وقد ظل على هذا المنوال طويلاً، وبدا وكأنه مختل العقل، الاّ أنه كان في الخفاء يذرف دموعًا حارة جدًا. ولمّا حان موعد رحيله، فتحنا باب قلايته ودخلنا. وبعد وابل من الاسئلة، سمعنا منه هذا فقط: سامحوني يا اخوتي، لا يستطيع أن يخطىء من يمتلك ذكر الموت. فدهشنا لما سمعناه من انسان عاش في التواني ردحًا من الزمن، الا انه فجأة تحوّل هذا التحوّل المغبوط. فلما رقد، صلّينا عليه وواريناه الثرى في مقبرة بجوار القلاية. وبعد ايام، بحثنا عن رفاته الطاهرة، فلم نجدها. على هذا النحو المثير للإعجاب، أظهر لنا ربنا أنه يقبل أولئك الذين يرغبون بالتوبة حتى ولو بعد كسل طويل.

من شأن التضرع التالي، الملحاح، إلى الممتلئة نعمة، أم الله، أن يعتق ذهننا من الذكريات السمجة الرديئة:

«لقد افسدتني أفكاري الدنسة.

وذكريات شريرة لوّثت قلبي الضعيف.

فخلّصيني ايتها البتول الكلية القداسة»

لقد أثخنتني الخطايا بالجراح
فاشفيني أنا المجروح والمتألم
أيتها البتول الكلية القداسة
واعتقيني من الذكريات الشريرة
يا من ولدت الكلمة المقتدر
الاله المحب البشر .

الفصل الرابع

بالصلاة تكون تنقية الذهن واستنارته

الصلاة هي حياة وغذاء للذهن. انها دواء وشفاء للذهن، وذلك لأنها تجعله صحيحًا معافى. وحالة الذهن الطبيعية - كما يصفها الآباء القديسون - هي سكنى الذهن في ذكر الرب، وفي تمجيده كل حين، وأيضًا سكناه في الاسرار الالهية، والحب الالهي والتنازل الالهي، والعناية الالهية. وهذا كله في نطاق الصلاة ومناخ الصلاة، لأن ذهن الانسان مخلوق. وهذا تظهره لنا الصلاة بامتياز. ان كل عمل يقوم به الذهن، هو فعل تسبيح. الا أن الذهن عندما يكون خارج الصلاة، أو بدون صلاة، فإنه يعمل على نحو معاكس للطبيعة، أي يكون في حالة غير طبيعية، قاتمًا، دنسًا، ومشتتًا.

قيل عن الأب مكاريوس انه بينما كان مرة متجهًا إلى الكنيسة، لمح عند قلاية أحد الاخوة مجموعة من الشياطين، بعضها تحوّل إلى نساء رحن يتكلّمن على نحو غير لائق، وبعضها الآخر تّحول إلى شبّان، راحوا يتحدثون بأسلوب مؤذ ومعثر. وبعضها الآخر كان يرقص. والبعض الآخر كان يقوم بحركات مخلّة بالآداب وغير لائقة. الا أن الشيخ القديس، اناء التمييز (مكاريوس) أدرك ما هو وراء كل ذلك، فتنهّد وقال في نفسه: «لابد أن هذا الأخ سقط في التواني، حتى أن الشياطين راحت تحيط بقلايته.»

وبعد انتهاء الصلاة في الكنيسة، مضى الشيخ مكاريوس إلى قلاية ذلك الأخ، وقال له:

يا أخي أنا حزين، إلا اني على ثقة من أنك إذا صلّيت من أجلي، فالله سيعينني، ويرفع الاوجاع عني. فقام الأخ وسجد للشيخ وقال:

يا ابت: أنا لست أهلاً للصلاة من أجلك.

فألح الشيخ في الطلب، وتوسل إلى الأخ قائلاً:

لن اغادر قلايتك حتى تقطع وعداً أنك ستصلّي من أجلي كل ليلة.

فرضخ الاخ لطلب الشيخ الذي أراد أن يشجعه على الصلاة كل ليلة.

وعندما استيقظ الأخ في الليلة التالية، قام وبدأ يصلي من أجل الشيخ.

فشعر بالانسحاق والندم، وقال لنفسه:

أيتها النفس الشقية كيف تصلين من أجل هذا الشيخ، ولا تصلين من أجل نفسك؟ فقام وأدّى صلاة طويلة من أجل نفسه أيضاً. وهكذا بدأ يؤدي الصلاة مرتين، واحدة من أجل الشيخ، وأخرى عن نفسه.

وفي يوم الاحد من الاسبوع التالي، قام الشيخ ومضى إلى الكنيسة فرأى الشياطين خارج قلاية الأخ كعهدها فيما مضى، الا أنها بدت هذه المرة مقطّبة وممتعضة، فأدرك أنها حزينة جداً لأن الأخ عاد إلى صلاته. فقام ومضى إلى الأخ فرحاً، وقال له:

اعمل معروفاً يا أخي، وأضفْ صلاة أخرى من أجل نفسي.

فاستجاب الأخ لطلب الشيخ، واضاف صلاة أخرى على الاولى. فعاد إليه التخشع والانسحاق، وقال في نفسه:

أيتها النفس البائسة، الا يجدر بك أن تضيفي صلاة أخرى من أجلك؟

وهكذا بدأ الأخ يؤدي الصلاة أربع مرات كل ليلة. فلما عاده الشيخ مساء الاحد التالي، رأى الشياطين حزينة جداً، صامتة ومتوجّمة، فشكر الله. ولما عاد من الكنيسة، توجّه إلى قلاية الأخ وطلب منه أن يضيف صلاة أخرى حبًا به. فوافق الأخ وأضاف صلاة ثالثة، واتبعها بأخرى من أجل نفسه. وهكذا بدأ يصلي ست مرات كل مساء. ولما عبر الشيخ بقلاية الأخ في الاحد التالي، لمح الشياطين تقف بعيدة عن قلاية الأخ. وهذه لما لمحت الشيخ، أخذت تتوعّده وتتهدّده، لأنه شغل نفسه بخلاص الأخ.

مجّد الشيخُ اللهَ، وتوجّه إلى الأخ ونصحه الاّ يتوانى بعد اليوم في الصلاة بلا انقطاع. فلما وّطد الأخ قلبه على الصلاة كل حين، غادرته الشياطين بقوة نعمة الله.

سأل أخ شيخًا قائلاً:

كيف يمكنني أن أجاهد كي تأتي نفسي بالثمر؟

فأجابه الشيخ وقال:

الجهاد من أجل الثمر، يأتي من صمت الجسد، والصلاة، وعدم الانشغال بأخطاء الآخرين، بل بخطايانا.

فإذا احتمل الانسان ذلك، فإن نفسه سرعان ما تجد ثمرًا، ويكون يانعًا (المجلد الرابع، Evergetinos).

وإذا كان عمل تنقية الذهن عظيمًا، فالجهد من أجل ذلك عظيم أيضًا. والجهد المبذول من أجل التنقية، هو نفسه الجهد المبذول في الصلاة. ومع النبي المرنم، يستطيع الانسان أن يصرخ ويقول: «انظر الى كربتي وألمي واغفر خطاياي» (مزمور ٢٤: ١٨)

سأل أخ شيخًا قائلاً:

بأي عمل ينبغي أن يكون انشغال القلب كي ينتفع؟

أجابه الشيخ وقال:

عمل الراهب الاساسي هو تركيز الذهن على الله بلا انقطاع.

فقال الأخ:

لكن الافكار الشريرة لا تسمح لذهني أن يهذّ بالله، فكيف أطردها؟

أجابه الشيخ:

الذهن يعجز عن القيام بهذا من تلقاء ذاته، اذ ليست عنده المقدرة للقيام بمثل هذا العمل.

لكن عندما تهاجمك الافكار، خليق بك، فورًا، أن تهرع إلى الله وهو يبدّدها عنك، وذلك لأن الله نار آكلة (تثنية ٤: ٢٤).

آن الاوان يا اخوتي كي نقر معترفين أن غالبيتنا نحن المسيحيين، وحتى الآن، لم نولي الاهتمام الكافي والعناية بالكلمات الالهية التي نطق بها الآباء القديسون وهي التي تتضمنها أو لا تتضمنها المجلدات المعروفة باسم (الفيلوكاليا)، لا سيما في باب الصلاة.

إن تنقية عين النفس - الذهن - واتحاده بالله الكلي النقاوة، ضرورية لخلاص النفس.

ان الاقتداء الخارجي، الآلي، الغربي، بالمسيح - وهناك كتاب تحت هذا العنوان - قد سبّب ضرراً وأذى، وزعزع المعايير الارثوذكسية. إن اقتناء الفضائل، هو بكل تأكيد وصية إلهية. بيد أنه لا يمكن للفضائل أن تكون بحد ذاتها، ومستقلة، بدون قوة الصلاة المحيية. فالفضائل لا تستطيع من تلقاء ذاتها، أن تقود إلى النقاوة ووحدة الذهن، بدون اشعاعات القوة الالهية.

ويقولِ القديس غريغوريوس بالاماس الجامع الروحي العظيم للتعاليم والخبرات الروحية الابائية، الشخصية: «لأن الالوهة صلاح محض، ورحمة حقيقية، لا بل لجة المراحم، لذا فإنها تسمو على كل اسم (افسس ١: ٢١). وكل ما ندركه، يمكننا أن نناله بالرحمة الالهية والاتحاد بالله. فنحن نتّحد بالله، قدر المستطاع، بالمشاركة في الفضائل الالهية، اما بالصلاة، فندخل في شركة حياة معه. الفضائل تماثل الالوهة (أي فيها ما في الألوهة)، والمشاركة فيها، تجعلنا اهلاً لاقتبال الله، الا أنها لا تتحدنا به. أما الصلاة، فقادرة بفعل قوتها الهائلة والمقدسة أن تحقق ارتقاءنا وصعودنا واتحادنا بالله. الصلاة هي الرباط بين الخليقة العاقلة وخالقها. وهذا يحصل - على الاقل - عندما ترتقي صلاتنا بفعل تخشّعها الحار، فوق الاهواء والافكار. فالذهن الرازح تحت الشهوات، لا يمكنه أن يتّحد بالله. وما دام الذهن رازحاً تحت الاهواء، فلا يمكنه أن يتّحد بالله، ولا أن ينال الرحمة. لكنه سيختبر الحزن الداخلي بمقدار ما يطرد الافكار التي تشتّته. وبمقدار اختبار الذهن لهذا الحزن، تكون بنفس المقدار مشاركته في رحمة الله. اما اذا استطاع أن يبقى محتفظاً بهذه الرحمة، بفعل التواضع، فإن هذا من شأنه أن يحوّل حالة النفس الغارقة في الاهواء (الفيلوكاليا، الجزء الرابع، القديس غريغوريوس بالاماس).

ولحالة الجسد شأن كبير في جمع الذهن ولـملمته في ذاته. لهذا فإن الاباء القديسين يوصون بالجلوس على مقعد صغير منخفض، وتوجيه الرأس نحو الصدر - أي نحو القلب - وترداد صلاة الرب يسوع: أيها الرب يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطئ. على أن يكون التنفس بطيئًا وهادئًا أثناء تردادها. وآلية وطريقة هذه الصلاة، تختلف جذريًا عن تقنيات جمع الذهن المعروفة في الاديان الشرقية غير المسيحية.

والحيلة الذكية عند الشيطان، هي سعيه على الدوام لتقديم الزيف الحاضر على أنه حقيقة، والحقيقة، على أنها الزيف والرياء. فالشيطان يضع الزيف بجوار الحقيقة، مع فارق صغير هو أشبه بالفارق بين الغرب والشرق (مزمور ١٠٢: ١٢).

وفي هذه الحالة، فإن الفارق الصغير الذي يرى فيه الانسان خداع ابليس ودهاءه، هو أن الانسان، في الصلاة القلبية، يدعو على الدوام اسم يسوع المسيح القدير، بينما في اليوغا، أو في ال zen، يتوجب على من يمارسها أن يردّد كلمة لا يفهمها. وإذا أراد أن يستفسر عن هذه الكلمة، المهمة، فإنه يجد أنها اسم لآلهة وثنية، أو شيطان (راجع القديس غريغوريوس بالاماس معلم عظيم للصلاة القلبية، بقلم الارشمندريت افرام رئيس دير كسيرو بوتامو، جبل آثوس، ١٩٨٤).

مغبوط الانسان الذي نال حكمة الصلاة المحرّكة بالروح، لأن ذهنه يتحرك بنتيجة ذلك، روحيًا، ويستنير بالنعمة التي من فوق.

وبالنسبة للاهوتيين، فإن الصلاة الملائكية العقلية النقية، هي في فعلها حكمة ملهمة من الروح القدس. أما العلامة على بلوغ الانسان مثل هذه الصلاة، فهي أن الذهن يكون عند الصلاة، حرًا من كل

شكل وهيئة، وممتلئًا من الاشعاعات الروحية، ويكون في وحدة تامة مع الله (الفيلوكاليا، الجزء الرابع، القديس غريغوريوس السينائي).

يقول القديس ايليا الكاهن: الذهن كالعروس. عندما يغلق على ذاته، أثناء الصلاة، فهو كالعروس التي تناجي عريسها داخل خدرهما الزوجي. أما الذهن الذي لا يُسمح له بالدخول إلى الخدر، فيقف خارجًا مكتئبًا وهو ينادي ويصرخ:

«من يقودني إلى المدينة المحصّنة» (مزمور ٦٠:٩)؟ من يقودني حتى لا أعود أرى الاباطيل والخداع أثناء الصلاة؟

سأل أخ شيخًا قائلاً:

وكيف تحلّق الافكار نحو الله؟

أجابه الشيخ:

إذا هاجمك فكر الزنى، فبادر توًا إلى رفعه نحو الله، وبدون ابطاء، لأن الابطاء علامة على موافقتك على الهجوم (ضدّك).

قال أخ:

وإذا راودني فكر باطل، هل انتفع اذا عارضته؟

أجابه الشيخ قائلاً:

إذا عارضنا هذا الفكر توًا، فإنه يقوى ويزداد عنفًا، وعند هذا الفكر ما يعارضنا به. والروح القدس لا يعين كثيرًا في الجهاد المتقلّب، اذ يبدو الأمر وكأن الروح يجدك فخورًا ومعتدًا بنفسك في المعركة ضد الاهواء، لذا عليك أن تهرع إلى الله.

الصلاة هي قضيب القوة. فلو لم يتلقَ موسى قضيب القوة من الله، لما استطاع أن يصبح الهًا أمام فرعون (خروج ٧:١)، وأن يكون سوطًا لنفسه ولمصر أيضًا. تاليًا، عندما يخفق الذهن في امتلاك قوة

الصلاة، فلن يقوى على سحق الخطيئة والقوى المعادية التي تثور ضده (الفيلوكاليا، الجزء الرابع، القديس غريغوريوس السينائي).

في هذه الحالة، ينعتق الذهن بالحرية الحقيقية التي بها حررنا المسيح. وتنسحب هذه الحرية على تحرير الجسد والنفس وكل حواس الجسد أيضًا، وهكذا يسود الذهن على الجسد، بحكمة وتعقّل.

وإذا كان الذهن والنفس يتمتعان بمحبة الله، فإنهما يكونان على انسجام فيما بينهما، ويكون الجسد كله في سلام، حتى ولو ضد رغباته (الفيلوكاليا، الجزء الثاني).

ويكتسب الذهن بنعمة الروح القدس تعقلاً داخليًا وهذا يُعرف باسم «الرصانة الالهية». وهذا التعقل، من شأنه أن يجعل حواس الجسد مطيعة، فتتحول لتحرر الانسان من قيود الجسد الشهواني.

أما إذا انعتق الذهن من كل رجاء بالعالم المحسوس، فهذا علامة على أن الخطيئة ماتت فيك. واذا انعتق الذهن، فالجدران القائمة بينك وبين الله، تتداعى. أما إذا انعتق الذهن من كل اعدائه، فإنه يدخل في عصر جديد. وعندما يرى الله أن الذهن يسرع إليه بصلاة دائمة، وبكل قوته، وأن ليس له عون آخر غير الله، فإنه يبادر توًا إلى مؤازرته قائلاً:

«لا تخف يا ولدي يعقوب أصغر اسرائيل، لا تخف لأني فديتك. لقد دعوتك باسمك أنت لي. وعندما تجتاز المياه أكون معك. والانهار لا تغلبك. وعندما تسير في النار، فلن تحترق، واللهيب لا يلتهمك. لأني أنا الرب إلهك قدوس اسرائيل مخلصك (اشعيا ٤١: ١٣-١٤)، (٤٣: ١-٣)، (فيلوكاليا، الجزء الاول).

وتحرير الذهن يعطى بمثابة ثمرة للصلاة الدائمة، وهو تكريس القلب لديان الكل. أما عمل الذهن الحقيقي، وخضوعه لله، فهو من أجل الانعتاق والتحرر من ذاته.

إن عطية الروح القدس الميستيكية، الداخلية، هي عطية صلاة، وهذه العطية تجتذب في بعض الاحيان الذهن فقط عندما يصبح أهلاً لاقتبالها، فترفعه إلى الاتحاد بالله، وتملأه غبطة مقدسة. وفي أحيان أخرى تصاحب هذه العطيةُ الذهنَ، ميستيكيًا، في طريقه إلى الارتقاء نحو الله، وترافقه في الصلاة، مرافقة الانغام الموسيقية لمن يرتل، فيكون الانسجام الكامل (القديس غريغوريوس بالاماس، في الدفاع عن الهدوئيين».

الذهن الغارق في الاهواء، والذهن في حالة اللاهوى

«بدل حواء الحسية، عندي حواء العقلية: الفكرة الشهوانية في جسدي تريني ما يبدو، عذبًا وجميلاً، لكن عندما أتذوقها، أجدها شديدة المرارة»

(القانون الكبير، الاودية الاولى).

الشر والاهواء يهاجمان الجسد في الاقسام الحسية منه وذلك عندما يكون الذهن ملوثًا بالافكار السمجة. واذا كان الجسد ملوثًا، فالذهن يصبح دنيويًا. وهذا التداخل بين الجسد والذهن، هو سر، على نحو ما يقول القديس يوحنا السلمي: «من المذهل أن ترى ذهنًا لا جسد له، ملوثًا وقاتمًا، بفعل الجسد. وعلى نحو مماثل، فالذهن الطاهر والنقي، يصبح هكذا، بفعل ممارسة الجسد النسكية».

وفي القداس السابق تقديسه (البروجيازميني)، يقول الكاهن مقيم الخدمة:

«أيها الاله العظيم المسبّح. يا من بموت مسيحك المحيي، نقلتنا من الفساد إلى عدم الفساد. أنت اعتق جميع حواسنا من موت الاهواء مقيمًا لها النطق الداخلي رئيسًا صالحًا. واجعل أعيننا تبتعد عن كل منظر خبيث، ومسامعنا لا تطرقها أقوال بطّالة، وألسنتنا سالمة من الكلام غير اللائق، وطهّر يا رب الشفاه المسبحة إياك، واجعل

أيدينا بعيدة عن الاعمال الذميمة، وفاعلة ما يرضيك فقط. حصّن كل أعضائنا وأذهاننا بنعمتك».

وفي طروباريات عديدة نستخدمها للقديسين، يذكر المرنم الذهن على أنه ديان وحاكم للأهواء السمجة. والذهن بفعل النعمة الالهية، يسود كل حواسنا، ويحررها معتقًا اياها من الشهوات الجسدية.

سألنا شيخًا مجاهدًا، في التسعين من عمره، ناسكًا عاكفًا على العمل والثيوريا، أعمى في الجسد، لكن عين نفسه الداخلية مستنيرة، وقلنا له: يا أبانا، كيف يستطيع الذهن أن يتطهّر ويتنقى من الافكار الدنسة؟

فأردف قائلاً:

ينبغي على الذهن أن ينسى ما هو النوم.

ولكن لماذا تطبق الاجفان عندما يكون الروح مستعدًا لكن الجسد ضعيف؟

فأردف قائلاً:

اغصبوا، اغصبوا يا اخوتي أنفسكم قدر المستطاع... ثم تابع يقول: ولا تشفقوا على ذواتكم. ان حب الذات هو أسوأ الشرور، فهو قادر أن يحول دون نهضة الذهن والنفس بآن.

وفي مسألة اليقظة وضبط النفس، يقول القديسان كالستوس واغناطيوس:

«ان ذكر الله، واليقظة ليل نهار، يجدّدان النفس وينعشانها. والله يجعل على هذه النفس سحابة لتحصينها طيلة النهار، ونارًا تسطع فوقها أثناء الليل. بهذا فقط، تكون النفس نورانية كل حين.

فاختاروا لأنفسكم العمل البهي في اليقظة الدائمة التي لا تتوقف في الليل، لأن الاباء بمثل هذا العمل عرّوا الذات القديمة، وجدّدوا العقل. في خضم هذا فقط، تحيا النفس في نوع من الخلود، وهو الاحساس الذي به تبدّد (النفس) ظلمة الاهواء لتنال الروح القدس.........

والنفس التي تتعب وتجاهد في هذا المناخ الملائكي، من شأنها أن تمتلك عيون الشاروبيم، لتحدق وتتأمل على الدوام في المشاهدة السماوية (الثيوريا) (الفيلوكاليا، الجزء الرابع).

ولما كان الجسد يغيّر العقل، حسب تعليم القديس يوحنا السينائي، فيجعله شهوانيًا وترابيًا، ويفسده ويظلمه بشهواته الدنيوية غير اللائقة، فإن الجسد هذا، نفسه، يسهم بفعل فضائله العملية (الصوم واليقظة)، في استنارة الذهن كي يرتقي درب اللاهوى. أما اللاهوى فهو الحياة في الله.

ان من كان عنده المحبة الكاملة، وبلغ ذروة اللاهوى، لا يعود يفرّق بين نفسه وبين الآخرين، أو بين المسيحيين وغير المؤمنين، أو بين العبد والحر، وبين الذكر والانثى. ونظرًا إلى كونه ارتفع فوق طغيان الاهواء، وجعل انتباهه على الطبيعة الانسانية الفريدة، فهو ينظر إلى الجميع على حد سواء، ويبدي الاستعداد نفسه نحو الجميع.

وعندما يتحرر الذهن من الاهواء، فإنه يتقدم ثابتًا، وغير مشتّت نحو تأمل الكائنات المخلوقة، ومن خلالها يتابع مسيرته نحو معرفة الثالوث الاقدس (الفيلوكاليا، المجلد الثاني).

في الواقع ان من لم ينل عطايا الروح القدس بعد، وهي تنكشف جسديًا للذين يعكفون على الصلاة، فإنه يندهش ويرتبك. ويفسر القديس غريغوريوس بالاماس، هذا، فيقول:

«كما أن الرغبات الشهوانية التي في الجسد، تنطلق من الجسد إلى الذهن، فتجعله شهوانياً وعاشقاً للأمور المادية، دون حدوث أي تحسن، من جرّاء اتصاله بالذهن الذي هو أسمى منه، هكذا هو الفرح الروحي الذي ينطلق من الذهن إلى الجسد، ليصون الجسد ويجعله روحانياً دون أن يفسده او يشتته من جراء اتصاله به، رغم كون الجسد أدنى من النفس.»

أما الوسائل النسكية في نظر القديس غريغوريوس بالاماس فهي: آلام الجسد، أي الحزن الجسدي والاوجاع. بهاتين يمات عمل الخطيئة في الجسد. والأمر نفسه مع الذهن: فالافكار التي تثير الشهوات الحيوانية في الجسد، تصبح أكثر رقة وضعفاً مع التعب المصحوب بالتواضع والصلاة اللذين يقودان إلى اللاهوى. وهذه اعتمدها ليس القديسون القدامى في الكنيسة، وحسب، بل أيضاً المحاربون الروحيون المعاصرون.

للألم وكبح جماح الجسد أثر بالغ على أفكار الزنى، وفي الجهاد ضد الشهوة والغضب ودينونة الآخرين. أما الدموع والانسحاق، فهي معمودية ثانية، بها يتنقى الذهن والنفس معاً. لنسمع التالي:

«الويل لي لقد لوّثت عقلي فأصبحت نجساً. لذا فإني اضرع إليك أيها السيد، فارحضني وطهّرني بمياه دموعي، واجعل لباس جسدي أبيض كالثلج» (القانون الكبير، الاودية الخامسة) وايضاً:

«لقد أظلم ذهني بأهواء الحياة. ولست قادراً أن أرفع عيني إليك في تعبي.

(صلاة من القانون الابتهالي لربنا يسوع المسيح).

الفصل السادس

الذهن في التجربة، والذهن في المعركة

ازعجت الافكار الدنسة أخًا، فحزن، وراح يقول بداعي تواضعه: لن أخلص ما دمت أفكر هكذا.

فقام ومضى إلى شيخ كبير وتضرع اليه أن يصلّي من أجله كي ينعتق من هذه الافكار.

فقال له الشيخ:

لن تنفعك الصلاة يا ولدي.

الاّ أن الأخ ألحّ في الطلب كي يستجيب له الشيخ. وبفعل صلوات الشيخ رفع الله الأخ من هذه المعركة. لكنه ما لبث أن سقط في العجرفة والكبرياء. فقام من جديد ومضى إلى الشيخ وطلب منه أن يصلي من أجله كي يسترد الافكار والتواضع التي كانت له من قبل (Evergetinos، المجلد الرابع).

عند هذه النقطة، يمكننا أن نذكّر أنفسنا بما قاله القديس يوحنا الذهبي الفم: «كي يُمنع الذهن البشري من التفكير انه إله، فإن الله عرّضه إلى الجهل والنسيان، وذلك كي يساعده على اكتساب التواضع».

الجسد يطلب ضد النفس، والنفس ضد الجسد. ان معركة غير معلنة تدور رحاها بين الاثنين إلى أن تكون نصرة الواحد على الآخر،

وذلك بهدف حيازة السلطة. وفي هذه المعركة تنقسم النفس، بحيث أن الذهن ينزع إلى أمر أصبح بالنسبة إليه هوى (الفيلوكاليا، المجلد الثالث).

وشر الشياطين ابتكاري ومتقلّب، فهي تبتكر سبلاً وطرائق للقتال بهدف إخضاع ذهننا. وهذه السبل تدفع المرء إلى الذهول من جرّاء ما يراه أمامه ويحصل له.

هناك شيطان يدعى الخّداع، دأبه الطواف على الاخوة، لا سيما عند الفجر، وقيادة الذهن من مدينة إلى أخرى، ومن قرية إلى أخرى، ومن بيت إلى بيت زاعمًا أن الاهواء والشهوات لا تثور من جراء هذه الزيارات. وهكذا ينطلق الذهن لملاقاة الاصدقاء القدامى، ومحادثتهم مطوّلاً، فينفسد بفعل الامور والحالات التي يواجهها، ويكون نتيجة ذلك انه شيئًا فشيئًا يسقط من معرفة الله والقداسة وينسى دعوته. لذا ينبغي على المجاهد، أن يراقب هذا الشيطان، وان ينتبه من اية جهة يأتيه، وأين يحمله، فهذا الشيطان لا يقوم بهذه الجولة الطويلة بدون سبب، أو اعتباطيًا، لأن همّه أن تنفسد حالة المجاهد وهذا يكفيه كخطوة اولى. واذ يضطرب الذهن من جرّاء التجوال الكثير، يتخدّر بفعل كثرة اللقاءات، فيسقط فريسة لشياطين الغضب واللاعفة التي من شأنها أن تتلف ضياء الذهن وبهاءه بالكلية.

ولكن لما كان الذهن، أثناء التجربة، محاطًا بالغشاوة، ولا يرى ما يحصل له بدقة، فأفضل ما أقوله لك بعد انسحاب الشيطان، هو التالي: لازم قلايتك، وتذكّر في وحدتك الامور التي جرت لك، واين بدأ التجوال، واين ذهبتَ، وأين احتُجزتَ بفعل شيطان اللاعفة والغضب، وكيف انطلى عليك كل هذا. افحص هذا كله عن كثب

وأخضعه للذاكرة، وذلك من أجل تعرية الشيطان حينما يعاود زيارتك بعد حين. جاهد كي تعي نقطة الضعف في نفسك، والتي اختبأ الشيطان وراءها لضربك والقضاء عليك، وقرّر بحزم أنك لن تتبعه بعد اليوم. واذا أردت أن تغيظه، فبادر إلى تعريته توّاً عندما يهاجمك، وقل له اين ذهبت أولاً وثانيًا... وهكذا دواليك. والشيطان سيغضب لا محالة، لأنه لا يحتمل العار. والبرهان على أنك مؤثّر وفاعل، هو ان الافكار ستفارقك، لأن الشيطان لا يقوى على محاربتك عندما تعرّيه. لكن لا بد أن تعرف أن هزيمته يعقبها نعاس ثقيل، وشيء من الموت، مع حالة من البرودة تصاحب جفن العينين، وثقل في الكتفين، مع تثاؤب كثير. لكن اذا صلّيت بقوة، فهذا كله سيتبدد بقوة الروح القدس. ويمكن للمطالعة الروحية مع الاسهار والصلوات، أن تعيد الذهن المشتّت والمستعبَد، إلى حالة التوازن. هذا ما يعلّمنا إياه القديس افاغريوس في (الفيلوكاليا، المجلد الاول).

ويقول القديس يوحنا السلمي ان النفس هي أشبه بعجل صغير يرعى بعيدًا، لكنه يبتعد تدريجيًا عن ارشاد الراعي. على هذا النحو يتمّ تضليل النفس من قبل الشياطين الشريرة. على كل حال، كما أن النار لا تصمد طويلاً امام الماء، هكذا فإن الافكار الفاسدة، لا يمكنها أن تبقى في القلب الذي يحب الله.

أما المعركة الثانية فهي مع الضغينة والحقد الذي من الغضب أو من الرغبات الشريرة. وهذا يحدث كما يقول الاباء القديسون عندما ينتصر الذهن على الغضب. ولكن عندما يتصدّى الذهن للشهوة، يقوم الشيطان ويثير عليه الغضب. وهذا الغليان الشيطاني في الذهن، يجعله يزني عقليًا، فيصبح غضوبًا، وبالتالي لا يعود قادرًا أن يعاين

الله الذي وحده يعيد الأمور إلى نصابها وتوازنها. والجمال الالهي يظهر للذهن في الصلاة عندما يكون هذا الذهن حرًا من صور المواضيع الحسية.

هناك براعة عند العدو وهي ما اود أن أسمّيه صنم الخطيئة ومعبودها، يقدمه الشيطان للذهن بعد أن تكون الخطيئة قد استفحلت. ويقابل هذا صنم الدمار البغيض الواقف في قدس الاقداس (الفيلوكاليا، الجزء الاول). الذهن هو قدس الاقداس، وهيكل لله العلي.

ومهاجمة الذهن - على نحو ما يعلّمنا القديس يوحنا السلمي - هي الهجوم المباغت الذي يشنّه الشيطان ضد الذهن المجاهد والمحب لله. ومثل هذا الهجوم يبدأ ضعيفًا، ثم ما يلبث، وبدون أي سبب، أو صورة، ان يباغت بسرعة فائقة، ليكشف الهوى ويميط اللثام عنه.

وسبيل آخر يعتمده ابليس، يقوم على أسر الذهن. وسبيل آخر يشن به ابليسُ الحرب ضد المجاهد على أساس الجهل والظلمة التي تقود إلى الضلال والهرطقة.

هناك أوقات يصارع فيها الذهن، دون أن يتمكن من التخلص من الحرب، وذلك لأنه يكون شديد التأثر بالاهواء المختلفة. لكن عندما يتضرع المرء إلى الله، ويركع عند عتبة الرحمة الالهية، يفتح الرب الباب، ويستجيب. هناك علاجات لخطايا الجسد، واخرى لخطايا الذهن. بهذا الصدد يقول القديس مكسيموس المعترف: عندما يخطئ الجسد في الامور المادية، فعنده الفضائل الجسدية تعلّمه كيف يضبط نفسه. وعلى نحو مماثل، عندما يخطئ الذهن بفعل الصور الشهوانية، فعنده فضائل النفس تعلّمه. وعندما يعاين الذهن الاشياء بطريقة تخلو من الهوى، يمكنه أن يتعلّم ضبط النفس (الفيلوكاليا، المجلد الثاني،

هناك مقارنة بسيطة، لكنها شائعة في الادب الابائي، فيما يختص بالعلاقة بين الجسد والذهن، وهي التالية: الجسد هو أشبه بحيوان، والذهن هو راكبه الذي يمسك بزمام الامور كالمدرب، وذلك كي يسوده.

وبينما ينطلق الجسد وراكبه (أي الذهن)، يهاجم ابليسُ الجسدَ ويسكن فيه مستخدمًا تحريض الجسد. ويكون الهجوم على نحو غير متوقع، بحيث أن الشيطان يستخدم ابرة الاهواء، وفي نيته أن يقود الذهن إلى الموت الروحي. ويقول القديس غريغوريوس السينائي: تتخذ الشياطين أشكالاً وهيئات، وتهاجم ذهننا حسب الهوى الذي يسودنا في الداخل. ويكون الهوى العلّة والسبب الذي على أساسه يتم تقديم الصورة. وفي الحقيقة أن الاوهام التي تظهرها الشياطين سواء كنا في النوم أو في اليقظة هي عديدة ومتنوعة.

الشياطين هي حقًا ممثلون بارعون لا يضارعها شيء في ايحاءاتها للصور الوهمية بغية التضليل وتأجيج النفس وإفسادها. الا ان الاباء القديسين الذين أتقنوا مناهج الحرب الروحية غير المنظورة، يميطون اللثام عن مخططات الشياطين الشريرة واستراتيجياتها ومواقعها وفخاخها واسبابها، والاقنعة الخداعة التي تستخدمها الشياطين الشريرة.

لنسمع من جديد ما يقوله القديس غريغوريوس السينائى المعلّم العظيم في الحروب الروحية فيما يختص بالعلاقات التي تقوم بين الاهواء والشياطين والافكار والاوهام:

الافكار هي الاسباب او العلل التي تولّد التحريض على الاهواء. وبعض الافكار يسبق البعض الآخر، فالافكار تسبق الاوهام، وهذه بدورها تسبق الاهواء. والاهواء تسبق الشياطين، والشياطين تتبع الاهواء.

الاهواء.

الاعمال الاثيمة المعوجّة تحرك الاهواء، والاهواء تحرك الافكار المشتِّتة. والافكار المشتِّتة تولّد الخيالات. أما الذاكرة المكسَّرة فتلد كثرة من الافكار. النسيان يسبّب تكسير الذاكرة، والجهل يقود إلى النسيان، والكسل يقود إلى الجهل. الرغبات الشهوانية تولّد الكسل والتواني، والشهوات تحركها الانفعالات التي يساء توجيهها. والانفعالات غير الموجَّهة تبرز عند ارتكاب الاعمال الاثيمة. أما الرغبة العمياء الجامحة، فتثيرها الافعال الاثيمة المتعلقة بالحواس بقوة... (الفيلوكاليا، المجلد الرابع، القديس غريغوريوس السينائي).

أما علاج الذهن الشهواني المريض، الجسداني، المغرور، فهو البكاء والنحيب... مع تواضع القلب: «الذبيحة لله روح منسحق، القلب المتخشع والمتواضع لا يرذله الله» (مزمور ٥٠ : ١٧)

قال أحد الاباء القديسين مرة مريداً ان يمتحن افكاري ليرى اذا كنتُ عديم اليقظة اذا وجّهها نحو الافكار الدنيوية. غير ان فكري ظلّ حيث هو غير عالم أين يذهب إلى ان أنهضته. فأدركت انه لو تُرك ذهني بدون الانتباه واليقظة، لكان من المستحيل إخضاعه. ان هذا العمل الروحي يتحقق في الهدوء والصمت، مع التواضع والصلاة. والصلاة بلا انقطاع، مع التواضع، سرعان ما تولّد نهضة الذهن وتقدُّمه.

الذهن[1] في الثيوريا، والذهن المتألّه

«تيقّظي يا نفسي وتشجّعي مثل الأب العظيم، وذلك كي تقتني أعمالاً بمعرفة، وذهنًا يعاين الله، فتبلغي بالتأمل، الظلمة الداخلية القصوى، وتفوزي بالجائزة العظيمة» (القانون الكبير).

هذه المقطوعة هي بمثابة طروبارية معبّرة جدًا تتعلق بالذهن الذي اقتنى الفضيلة العملية بالمعرفة، وبالدخول إلى اسرار الثالوث الاقدس الكلي البهاء، وحكمة الله.

والذهن الذي يعاين الله، يصبح إلهًا بالنعمة، ويرتقي إلى ذرى الثيوريا، ومشاهدة الثالوث الاقدس.

والمجاهد لا يستطيع أن يرقى إلى هذه القامة المغبوطة من الثيوريا، الا إذا اجتاز المرحلة العملية أولاً. لقد عمد الأب اشعيا إلى مقارنة بديعة، عندما قرن بين الذهن ويعقوب (في العهد القديم)، وبين ليّا زوجة يعقوب، والاتعاب الجسدية (أعني بها الفضائل العملية)، وبين راحيل زوجة يعقوب، والثيوريا، فقال: هذا ما يصيب الانسان الذي ما يزال حتى الساعة في ما بين النهرين (mesopotamia)، وما يزال بتمييز وحصافة، يُقبل على الاتعاب الجسدية. فهذه الاعمال تقف بازاء التمييز، أما شرور ابليس، فيقف التواضع بإزائها.

بيد أن راحيل لم يكن عندها ولد من صلب يعقوب، إلى أن وضعتْ ليّا، كلّ اولادها. وهذا يعني أن الثيوريا او (المعاينة الالهية)،

(١) الذهن والعقل هما شيء واحد في هذا الكتاب

لن تنكشف للانسان، الا اذا عكف على الجانب العملي من الفضيلة، وانشغل به اولاً. ما معنى هذا الكلام؟

الكلام هذا يعني: اذا دانت الحواس للاتعاب الجسدية، وخضعت لها، فانعتقت الحواس من الاهواء، تباعًا، بحيث أن الاهواء لم تعد ذات تأثير على الحواس، عندئذ تكشف الثيوريا بهاءها وجمالها للذهن. فأولاد ليّا ساعدوا يعقوب، لكن قلب هذا أحب يوسف أكثر من الجميع. حقًا، من شأن الاتعاب الجسدية أن تدرأ عن الانسان مخاطر العدو، بيد أن الثيوريا او المعاينة الالهية - دون سواها - فهي التي تُتحد الانسان بالله.

فلما رأى يعقوبُ يوسفَ، اراد أن يمضي إلى أهله وعشيرته، وذلك لأنه رأى أن ملك أخوته قد ولد. فجاء ونال غبطة بركات الله الذي قال له: لن تدعى بعد اليوم يعقوب، بل اسرائيل. لقد دعي يعقوبُ اسرائيل، لأنه هزم ابليس. هكذا، فعندما يصبح الذهن أهلاً للبركة، ويخلّص الحواس معتقًا اياها من يدي ابليس، بعد أن كانت رهينة له، عندها يُسمّى من جديد «اسرائيل»، أي الذهن الذي يعاين الله.

بالحقيقة عندما ينعتق الذهن من الرباطات الجسدية والروحية والطبيعية وسائر الامور الاخرى، وينشغل بالانتقال من ذهن يعمل في نطاق النشاط الطبيعي، إلى ذهن يعمل في النطاق الروحي، أي عندما يرتقي الذهن نحو الفائق الطبيعة، أى الروحي، عندها يعود إلى ذاته، ومنها يعرّج إلى ادراك الله. وعندما يمثل أمام هذا الضياء المبهر، فيسطع بفعل الجمال المشاهَد، فإنه ينسى نفسه. بهذا يأتي الذهن إلى انقاذ ما هو على الصورة والمثال. هذا هو عمل الذهن الحقيقي. وبهذا يتحد الذهن قلبيًا، وعلى الدوام، بالعقل الالهي، اعني به الله.

هذا هو عمل الذهن، وهذه هي حركته. وهذا يتحقق في اطار (الحركة الدائرية). وهذه الحركة هي الوحيدة الثابتة والعديمة الضلال، وذلك لأنها انفصلت عن كل علاقة منظورة وغير منظورة. ان هذا اتحاد مباشر، لكنه وراء الادراك، لا بل وراء النور المنظور نفسه.

وثمة حاجة ههنا إلى تمييز عظيم، بحيث لايبادر الانسان إلى طلب أي شيء، قبل الأوان، فلا يرفض كل ما يزال حتى الساعة ممسكًا به، بين يديه، ليتخيّل اموراً أخرى. هناك خوف عظيم من ذلك. (الفيلوكاليا، المجلد الرابع، القديس غريغوريوس بالاماس).

اما معاينة الله فهي تأله الذهن. والقديس غريغوريوس بالاماس يقول: لأن الذهن يصبح ما يراه الذهن.

ويدعم الفيلسوف اليوناني ارسطو هذه الحقيقة والتي مفادها أن الذهن يصبح ما يدركه هذا الذهن، فيتلوّن ويصبح في شبه المدرَك (في العمل لا في الجوهر)، أي أنه يصبح شبيهًا بما يعاين. وبحسب تعليم القديسين بطرس الدمشقي، وكاليستوس، يعاين الذهن كمالات الله، فيتغيّر بقوة النعمة الالهية، ويصبح شبيهًا بكمالات الله. فمن الحكمة الالهية، يصبح حكيمًا، ومن قداسة العقل الالهي، يصبح قديسًا، ومن النقاوة الالهية، نقيًا، ومن البساطة، بسيطًا، ومن النور الالهي، بهيًا ونورانيًا.

لهذا، كيف يمكن للمرء أن لا يفرح - كما يقول القديس نيقوديم الآثوسي، عندما يرى نفسه تتحوّل على نحو عظيم، وانه مائت، لكنه غني بفرحة الخلود؟ كيف لا يفرح من يرى نفسه يرتقي نحو مثال الله؟ كيف لا يفرح عندما يرى الله ممسكًا بيده، أو انه ممسك بيد الله؟ ان

عند المحبة الالهية خاصية فريدة بها تجعل قلب هذا الانسان شبيهًا بمعشوقه (الله). كيف يمكن اذًا للانسان المحبوب، الاّ يفرح بالكمالات الالهية، سيما عندما يرى قلبه متّجهًا نحو مثال الله معشوقه؟ الا يردّد ما قاله الرسول الالهي: «احيا، لا أنا بل المسيح يحيا فيّ» (غلا ٢: ٢٠)؟

ويتابع قائلاً: ان معاينة النور الالهي والجمال الالهي، لهي اعذب واجمل كمالات الله على الاطلاق. انها الاكثر معشوقية على الاطلاق. والمعاينة الالهية قوية جدًا، بحيث انها تضرم في القلب المحبة نحو الله الخالق، فتخترق بقوة وفعل السهام السماوية، قلب احباء الله. ان الوحدة او الاتحاد بين الذهن الذي يحب الله، بين الذهن والنموذج الاول prototype، بين الذهن والايقونة المحبوبة، بين الخليقة والخالق، تحصل بفعل حركة متبادلة، بحيث ان الله المحبوب ينزل من عليائه ويتّحد بالذهن، فيجعله إلهيًا، ويفيض عليه من النعم، بمقدار ارتقاء هذا الذهن نحو الله بالثيوريا والصلاة والنقاوة، وحفظ الفضائل.

القسم الثاني

اقوال
بعض الاباء القديسين
في الذهن

الفصل الأول:

القديس ذياذوخوس فوتيق

وروح الله القدوس، والمحب، يعلّمنا أن ملكة الادراك الطبيعية في نفوسنا، فريدة. فإن الحواس الجسدية الخمس نفسها، تختلف فيما بينها، وذلك بسبب حاجات الجسد المتغيرة. لكن ملكة الادراك الفريدة، تنقسم، بسبب تغيير الموقع الذي يحصل في الذهن من خلال الانماط التي تعمل النفس بموجبها الآن، وذلك كنتيجة لمعصية آدم. وهكذا فإن قسماً من النفس يماشي القسم الشهواني في الانسان، وبهذا، نقع أسرى للأمور الجميلة في هذه الحياة. أما القسم الآخر من النفس، فسرعان ما يبتهج بما يقوم به الذهن. وهكذا فإننا عندما نمارس تشدداً على النفس، فهذا يجعل الذهن توافًا إلى الجمال السماوي. وإذا تعلّمنا بالمثابرة ان ننفصل عن جمالات هذه الدنيا، عندها ستتمكن من توحيد الشهوة الدنيوية في النفس بهدفها الروحي والداخلي وذلك بمعونة الروح القدس الذي يحقق هذا الهدف في قلوبنا. لأنه بدون عمل الروح القدس الذي ينير مخدع القلب الداخلي، لا نستطيع أن نذوق الجمال الالهي بواسطة ملكة الادراك غير المقسّمة، أعني بذلك الرجاء الواحد والموحّد.

وملكة الادراك في الذهن، هي القوة التي بها يتم التمييز على نحو دقيق بين مذاقات الحقائق المختلفة. وعندما نكون أصحاء، فإن حاسة الذوق تقودنا إلى التمييز - بدون خطأ - بين الطعام اللذيذ،

والطعام الفاسد، فنختار الطيب منه. وعلى نحو مماثل، فإن ذهننا عندما يعمل بنشاط، بمعزل عن جمالات الدنيا، فإنه يدرك غنى نعمة الله، فلا يضل بأي خداع يأتيه من إبليس. تمامًا كالجسد الذي يذوق الطعام اللذيذ في العالم، فيعرف بالخبرة ما هو كل شيء على حقيقته. فالذهن عندما يضبط الجسد، يعرف بكل يقين متى يذوق نعمة الروح القدس، لأنه مكتوب: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» (مزمور ٣٤:٨). والذهن يحتفظ بتذكر هذه المذاقة، طازجة، وذلك بقوة المحبة، فيختار، بدون ضلال، الافضل على الاطلاق. لهذا يقول القديس بولس: «وصلاتي وتضرعي ان تنمو محبتكم أكثر فأكثر في المعرفة كي تختاروا ما هو أفضل» (فيليبي ١:٩-١٠).

الروح القدس وحده يقدر ان يطهّر الذهن، لأنه بدون قوة عظيمة تطيح بابليس، فالذهن لن ينعتق البتة (لوقا ١١:٢١-٢٢). لذا ينبغي علينا بما أؤتينا من قوة، أن نجعل ذواتنا بفعل السلام الحقيقي، مسكنًا للروح القدس، فنحوز مصباح المعرفة الروحية متّقدًا على الدوام في داخلنا. وعندما يسطع هذا المصباح في خدر النفس الداخلي، كل حين، فالذهن لن يدرك هجمات الشياطين الحرّة والقاتمة وحسب، بل ان تلك الهجمات نفسها ستضعف وتفتر عندما تتعرى أمام هذا النور القدوس. لهذا يقول الرسول: «لا تطفئوا الروح» (١ سا ٥:١٩). وكلام الرسول يعني: لا تحزنوا صلاح الروح القدس بالاعمال والافكار الشريرة الدنسة، لئلا يعوزكم النور الذي يحميكم ويحفظكم. والروح القدس لا يُطفأ، لأنه أزلي ومعطي الحياة. لكن إذا أحزنّاه، أي إذا غادَرَنا وابتعد عنا، فالذهن سيبقى بدون نور المعرفة الروحية. بهذا يكون الذهن هذا قاتمًا وفي ظلام دامس.

وكما ان البحر المائج يهدأ عندما ينسكب فيه الزيت، هكذا تهدأ النفس، شيئًا فشيئًا، عندما تُمسح بزيت نعمة الروح القدس. فالنفس تذعن بمحض إرادتها للنعمة الالهية التي تفوق الاهواء التي تظلّلها على نحو ما يقول المرنم: «يا نفس أطيعي الرب» (مزمور ٦٢: ٥). وفي النهاية، ومهما كان تحريض الشيطان للنفس، فإنها تبقى حرة من الغضب، وتمتلىء بأعظم فرح. ليس من إنسان يستطيع الدخول إلى مثل هذه الحالة، والبقاء فيها، الا إذا كانت نفسه تستعذب مخافة الله، لأن مخافة الرب يسوع المسيح، هي مقياس النقاوة للذين يطلبون الدرب الروحي: «لأن مخافة الرب طاهرة وتدوم إلى الابد» (مزمور ١٩: ٩).

ينبغي الا نشكّ ان الذهن سيصبح شفّافًا إلى حد انه سيعاين النور بانتعاش، وهذا يحصل عندما يعمل بقوة، وبفعل النور الالهي. وأيضًا يحصل عندما تخضع الاهواء للنفس، فيبدو كل شيء للذهن وكأنه نور ونار. اما إذا كانت للاشياء هيئة، فهي ثمرة عمل الشرير كما يعلّمنا الرسول الالهي الذي يقول بوضوح: «لأن العدو قادر أن يتحوّل إلى ملاك من نور» (٢ كور ١١: ٢٤).

الفصل الثاني

الآب اشعيا

يا اخوة، لنتّخذ - كمثال لنا - يعقوب المحبوب الذي لما اطاع والديه في كل شيء، وحسب رضى الله، نال البركة. فقد انطلق إلى ما بين النهرين، مرورًا اولاً بمكان يدعى بيت ايل الذي يعني بيت الله. فأمضى ليلته هناك، ورأى في حلم سلمًا عظيمة امتدت بين الأرض والسماء. وكانت ملائكة الله تصعد وتنزل عليها. وكان الله نفسه ينحني عليها. ان هذه علامة لكل الذين يريدون أن يعملوا من أجل الله، وحبًا به. وشكل الفضائل وهيئتها، تنكشف لهم في البداية، الا أنهم لن يبلغوا إلى الله، الا اذا بذلوا الجهد من أجل ذلك.

فلما نهض يعقوب، قطع وعدًا ثابتًا أمام الله بأن يخدمه طوال حياته. فآزره الله قائلاً: «سأكون معك واحفظك». فجاء يعقوب إلى ما بين النهرين ليجد لنفسه زوجة، ويصير له منها اولاد. فأحب راحيل منذ أن التقاها، وعمل من أجل زواجه بها طيلة سبع سنوات. بيد انها لم تُعط له، إلى أن أخذ ليّا اولاً. ثم أتم عبودية راحيل سبع سنوات أخرى، وبعد ذلك زُفّت له. الا انها كانت عاقرًا. ما معنى هذه القصة؟

معنى هذه القصة هو التالي: تقع منطقة ما بين النهرين، بين دجلة والفرات. دجلة هو فضيلة التمييز، والفرات هو التواضع. ليّا هي العمل الجسدي، أما راحيل فينظر اليها على انها الثيوريا الحقيقية. هذا

ما يحصل للانسان عندما يكون في ما بين النهرين. فهو بالتمييز والعمل الجسدي يقاوم شرور ابليس، أما بالتواضع فيرقى إلى الثيوريا الحقيقية. راحيل لم تنجب حتى انجبت ليّا كل أولادها. ما معنى هذا الكلام؟ اذا لم ينجز الانسان الجانب العملي من الفضيلة، فالثيوريا الحقيقية لا تحرره.

كانت راحيل وليّا بالنسبة إليه زوجتين، الا أن حبه لراحيل كان أعظم. فراحيل كانت جذابة وحسنة القد. أما ليّا فكانت ضعيفة النظر. والعينان الضعيفتان ترمزان إلى الأتعاب الجسدية. وضعيف العينين لا يقوى على معاينة مجد الثيوريا الحقيقية.

لقد سمي يعقوب لأنه هزم العدو، وافلح في نيل البركة، وافتدى حواسه التي كانت في يدي العدو. ودعي اسرائيل عندما انعتقت حواسه من ابليس. ومعنى «اسرائيل»، الذهن الذي يعاين الله.

وهكذا، فالعدو يخشى الذهن الذي ينجح في معاينة مجد الله. ولو أن عيسو يأتي للقاء يعقوب والمرارة تأكله، الا أن تواضع يعقوب سيبدد مكر عيسو ودهاءه. سوف لن يقاتل عيسو، لأن الله سيحارب عنه، لكونه اتضع أمامه. واذا كان العدو يحسد يعقوب، بسبب من المجد الذي ناله، فهو لن يستطيع ان يُلحق به الاذى لأن الله إلى جانبه كما هو مكتوب: «عد إلى مسقط رأسك فأكون معك». فعاد إلى أورشليم، أي انه وجد السلام في داخله. وهذا يعني أن من ينتصر في القتال، سيفوز بالسلام.

فابتاع يعقوب حقلاً في أرض الميعاد وبنى مذبحًا بأثني عشرة حجرًا كي يذبح لله الذي افتقده في كربته (مزمور ١٩ : ١). ثم قدم لله ذبيحة من تعبه بينما كان ما يزال في ما بين النهرين

هكذا كانت تجارب يعقوب وجهوده قبل أن اقتبل النعمة. وهذه ومثيلاتها كانت نماذج ليعقوب، وللذين على شاكلته من الذين جاهدوا قبل اقتبال النعمة. وذلك كتب لتشجيعنا، كي نحذو حذو الذين جاهدوا كي يفوزوا بالابدية. والابدية كانت تحفظهم من كل سهم كان العدو يرميهم به. لقد القوا على الرب اتكالهم، وكانوا يتضرعون كي يهبّ إلى معونتهم، لأنهم لم يكونوا يعتمدون على جهودهم الخاصة.

واذا رأى الله أن الذهن خاضع له حقًا، ومن كل قدرته، وليس له معين الا الله، فإنه يبادر توًا إلى نجدته قائلاً: لا تخف يا ولدي يعقوب أصغر اسرائيل. وأيضًا: لا تخف لأني فديتك. لقد دعوتك باسمك. أنت لي عندما تجتاز المياه أكون معك، وبالانهار لن يقووا عليك. واذا سلكت وسط النار فلا تحترق، واللهيب لن ينالك بسوء لأني أنا الرب إلهك قدوس اسرائيل ومخلصك (اشعيا ٤١: ١٣)، (اشعيا ٤٣: ١-٣).

واذا كنت شابًا وما يزال جسدك قويًا ومعافى رغم الممارسات النسكية، لكنك سمعت عن الفضائل السامية التي عند الاباء، فلا تحسدهم مريدًا أن تنجز فضائلهم، براحة، فأنت لن تحقق هذه الفضائل الا اذا عملت وجاهدت من أجلها. وعندما تتعب من أجلها، فإنها تأتي من تلقاء ذاتها.

هناك ثلاث فضائل - عندما يجدها الذهن في داخله - يدرك أنه بلغ الخلود: التمييز، وهو القدرة على التمييز بين شيء وآخر، القدرة على التنبؤ عن كل شيء، قبل الاوان. وأخيرًا ان لا تنجرّ إلى شيء غريب عن الله.

هناك ثلاث فضائل أخرى تنير الذهن على الدوام: ١- ان لا ترى الشر في الناس. ٢- ان تحسن إلى الذين يسيئون اليك. ٣-ان تحتمل الآلام والاوجاع بدون ان تنزعج. وهذه الفضائل الثلاث من شأنها أن تولد ثلاثًا أخرى أعظم منها: أن لا ترى الشر في الناس، فهذه من شأنها ان تولّد المحبة. وان تحسن إلى الذين يسيئون إليك، وهذه تولّد فيك السلام. اما احتمال الالام والاوجاع دونما انزعاج، فتولّد فيك الوداعة. وفي أعلى هذه كلها، يستقر روح الله.

كذلك هناك أربع فضائل أخرى من شأنها أن تطهّر النفس: الصمت، حفظ الوصايا، النظام المتشدد، والتواضع. وهناك أيضًا أربع فضائل متبقية بها يُحفظ الذهن، واليها يحتاج على الدوام: ١- الصلاة إلى الله بلا انقطاع. ٢- طرح النفس أمام الله والقاء الهم عليه برجاء وثقة كاملين. ٣- طرح الانشغال والتلهّي بالاخرين جانبًا، لأن هذا من شأنه أن يسبب دينونة لهم. ٤- أن تصبح كالاطرش لما تهمس لك به الاهواء والافكار الشريرة. وكل هذه تجري صيانتها وحمايتها بمقاومة أعظم الشرور، وأسوأها، أعني به النسيان.

وثمة أمور أخرى تظلم النفس:

- بغض القريب
- احتقاره
- التشكّي والحسد

من شأن النفس أن تتصحّر اذا عرفت هذه الثلاثة، فتتنقّل من مكان إلى مكان، وتبغي التشتت، وتتوق إلى الامور المادية.

لذا فإن من اراد أن يصبح تلميذًا للمسيح، عليه أن يهرب من الاهواء. واذا لم يطرحها عنه، فإن الله لن يقيم فيه، ولن يشعر

بعذوبة الحياة الالهية. وقال الرب: اذا كانت عينك بسيطة، فجسدك كله يكون نيّراً. ولكن اذا كانت عينك شريرة، فجسدك كله يكون مظلمًا» (لوقا ١١ : ٣٤).

فانتبه لنفسك، لأنه عندما لا يكون ذهنك قد تماثل للشفاء من الشرور، فإنه لن يقوى على تقييم نور الألوهة، فالشر يستحيل إلى جدار مظلم في الذهن، ويأتي بالنفس إلى الهلاك والاضمحلال. وقد قيل في الكتاب الالهي: «لا يضيء أحد شمعة، ويضعها تحت المكيال، بل على المنارة ليضيء لجميع الذين في البيت» (لوقا ١١ : ٣٣). المكيال يشير إلى ظلمة هذا العالم. فعندما يكون الذهن معاكسًا للطبيعة، فشمعة الالوهة لا تسطع فيه. أما إذا جعلت الشمعة على المنارة، فإن نور الالوهة يسطع ويضيء، ومن جراء ذلك يتمكن الذهن أن يرى من هم في الداخل، واولئك الذين ينبغي أقصاؤهم، فيستبقي في داخله جماعة السلام فقط.

لهذا السبب عينه قال يسوع لتلاميذه الذين استنارت اذهانهم: «قوموا ننطلق من ههنا». ولكن إلى أين يريد أن يصطحبهم؟ انه يريد أن يرفع عقولهم من الاهتمامات الدنيوية، ويجنّحها كي تصبو إلى ملكوته. لهذا قال عندما شدّدهم مشجعًا إياهم: «أنا الكرمة الحقيقية وانتم الاغصان. امكثوا فيّ وانا فيكم. كما أن الغصن لا يأتي بثمر من ذاته الا إذا ثبت في الكرمة، هكذا انتم.......... (يوحنا ١٥ : ١).

قال هذا متوجّهًا إلى الذين تركوا الاهتمامات العالمية، وقاطعوا الاهواء، وذلك لأن الروح القدس يسكن فيهم، ويخدمهم، ويعتني بأمرهم، حسب قوله: «لأنه ليس أنتم المتكلمون، بل روح أبيكم يتكلّم فيكم». ويتابع الرسول قائلاً: «لقد كشف لنا الله هذا بروحه،

فالروح يتفحص كل شيء حتى أعماق الله». وأيضًا: «لأن فينا عقل المسيح». (١ كور ٢ : ١٠).

اذًا، كيف يكون للمرء عقل المسيح إذا كان يخطئ؟ ويقول في موضع آخر: «لأننا نحن أعضاء جسده، من لحمه ومن عظامه» (افسس ١٥ : ٣٠).

أترون كيف ان الرب يريدنا أن نكون مثله في كل شيء؟ في الحقيقة كُتب أن الله أحضر جميع الحيوانات إلى آدم ليرى إذا كان فيها من هو مثله، فلم يجد، لأن الحيوانات ليس فيها طبيعة كالتي للانسان. عندئذ أخذ الله إحدى أضلاع آدم وبرأها امرأة. . . . .

هكذا، وكما أن حواء خلقت من ضلع آدم، فكانت مثله في كل شيء، فإن نفوس الذين تركوا الاهتمامات العالمية، وتبعوا مشيئة الله المقدسة، صاروا للختن، وذلك بإعادة الولادة من الروح، فهم الآن مثل الله، وأعضاء جسده. ويقول الالهي بولس: «أنتم الذين تؤمنون بالمسيح، جميعكم جسد واحد في المسيح، وجميعكم أعضاء بعضكم لبعض» (رومية ١٢ : ٥).

لذا، فلنحفظ الفضائل، والروح القدس يقيم فينا كما قال المسيح: اذا كنتم تحبونني تحفظون وصاياي. وأنا أصلي فيعطيكم الآب معزيًا آخر روح الحق (يوحنا ١٤ : ١٦).

لنجاهد بكل قوانا، مع دموع، وشيئًا فشيئًا نتعرّى من أعمال الانسان العتيق. صونوا أنفسكم من كل ما هو هدّام ومهلك، إلى أن تنزل محبته عليكم وترفع عنكم صورة الانسان الترابي، لتحلّ محلها في قلوبكم صورته القدوسة على نحو ما يقول الرسول: «وكما أننا

حملنا صورة الارضي، فإننا سنحمل صورة السماوي» (١كور ١٥: ٤٩). الرسول يعرف انه ليس من إنسان بدون خطيئة منذ معصية الانسان الاول، لكنه يعرف أيضًا أن التوبة قادرة أن تسترد الانسان إلى الجدة والبهاء. لهذا السبب طالبنا أن نتجاهل اعمال الذين عصوا الوصية الالهية، وأن نتبع أعمال ربنا يسوع المسيح، أعني بها وصاياه. والرب نفسه أظهر الرحمة، واتخذ صورة عبد، وذلك كي يعيد الانسان إلى الجدة والبهاء المحجوب، واعطاه كل فضائله المقدسة، وأيضًا اعطاه أن يأكل من شجرة الحياة (رؤية ٢: ٧) اعني بها النقاوة. ودعاهم اخوة وأصدقاء أولئك الذين تبعوه. وسكب من روحه عليهم، لأنه قال: أنا صاعد إلى أبي وأبيكم، والهي والهكم (يو ٢٠: ١٧). وصلى إلى الآب من اجلهم قائلاً: يا أبت أريد أن الذين اعطيتني أن يكونوا معي حيث أكون أنا، ليعاينوا مجدي..... لأني احببتهم كما أحببتني» (يوحنا ١٧: ٢٣-٢٤).

هذه هي كلمات الذين احبوا الرب وجاؤوا اليه، وقد صارت نفوسهم عروسًا مزدانة بكل فضيلة، وقد امسكوا بالمرآة ليروا اذا كان عليهم غضن او وسخ لا يرضي الختن. وهم ينظرون الى المرآة كل حين في مجد الختن، وكما يقول الرسول: لأننا نعاين وجه الرب كما في مرآة،........ (٢ كور ٣: ١٨). وأيضًا يقول: «الان نرى كما في مرآة، وبغشاوة، ولكن في ذلك الحين نعاينه وجهًا لوجه» (١كور ١٣: ١٢).

الانسان الذي يلوم نفسه ويبذل مشيئته عن احبائه هربًا من الخصام وحبًا بمجد الله، هو مجاهد. والآن من عنده ذهن يقظ ويسير في ارشاد الرب عن معرفة، مستعد كل حين ان يبذل ذاته وذلك كي يبقى

ملتصقًا بالرب معشوقه. ولكن من يقول: لا يهمني ان تكلّمت أو أصغيت، هو أعمى لا يرى، سواء أُدْخلَ إلى البيت أو أُخْرِج منه. واذا حجبت الشمسَ غيمةٌ، فهذا لا يَعني أن الغيمة تخفي ضياء الشمس وتحجب حرارتها. هذه الامور لا يفهمها الجميع، لأن احتقار الآخرين ودينونتهم يُزعج العقل ولا يَسمح له برؤية نور الله.

الفصل الثالث

القديس نيقوديم الآثوسي

سببان هما وراء صيرورة العقل الروحي عبدًا للملذات الحسية:

١- بعد معصية آدم، صار الجسد يتخذ وجوده وهيئته من الملذات والشهوات غير العاقلة. باللذة يُزرع الجسد. وباللذة يُحبل به. وباللذة أيضًا ينمو ويكتمل في الرحم، قبل ولادته. وهذا ما عناه المرنم داوود عندما قال: «بالآثام حبل بي، وبالخطايا ولدتني أمي» (مزمور ٥٠:٥).

٢ - بعد الولادة، بدأ الجسد ينمو بالملذات، من الطفولة، لا بل بدءًا من الاشهر التسعة الاولى داخل الرحم. ولما كان التمييز في الذهن، غير مكتمل، فإن الذهن غير قادر على استخدام حواس الجسد، من أجل تفعيل قواه الذاتية، وهكذا فإنه يبقى في ملذاته. والذهن يستخدم الجسد، ليس للطعام الضروري وحسب، بل من أجل الملذات الجسدية أيضًا. لا بل ان الاسوأ هو ان الجسد شرع يجتذب الذهن ويستعبده بالملذات الحسية، وذلك لأن الذهن غير مكتمل، وعديم التمييز.

وهذا، يؤكده القديس ثيوذور الاورشليمي في مبحثه الفلسفي: «لما كان العقل الروحي منشغلاً بالحواس، فقد اعقب ذلك، الشهوة مع الغضب. وهذان لا يعقلان، ولا يسيطر عليهما العقل المنطقي، انما بالطبيعة هما مغروسان في النفس، في كل أقسامها، وفي العادة

وفي العادة ليس من السهل تنقيته (اي الذهن) البتة.

ولما كانت الحواس كاملة وقوية منذ البداية، فإنها قادرة أن تطيح بالذهن غير المكتمل الذي ليس له نشاط روحي، في حينه، بل نشاطه جسدي وطبيعي. وهكذا تتمكن الحواس من إقناع الذهن أن يقبل بها كلها على أنها صالحة، وأن يقبل أيضًا كل ما تعتبره الحواس صالحًا. لذا فالذهن الذي يُفترض به أن يسود ويحكم، لأنه متفوق، ها هو يخضع للحواس التي هي أدنى منه.

ولكن يا لها من مرارة تلك التي تنتهي اليها الحواس! كم هي مرهقة ومؤلمة لا سيما لاحقًا عندما يصبح الذهن بائسًا وشريرًا! وهذا يُعزى إلى أن الحواس حيوانية وغير عاقلة، ولا يسودها العقل، وقد سبق لها أن ذاقت الملذات الارضية، واتخمت بها حتى الخامسة عشر من العمر حيث يكون الذهن أثناء ذلك نائمًا، فتعمد الحواس إلى قيادته، بينما هو عاجز، حتى حينه، عن ضبطها وكبح جماحها. الأعضاء، في الجسد، أصبحت مدمنة على الملذات الدنيوية إلى حين اكتمال نمو الذهن.

والاهواء التي تسود العقل (الذهن)، تصقل الحواس وتقولبها وتدفعها نحو الخطيئة. فمن يستطيع بعد ذلك أن يكبحها؟ (القديس مكسيموس المعترف). وعندما تألف العين النظر، على نحو شهواني، إلى الاجساد الحسنة الاطلالة، والجميلة، وعندما تستعذب الاذان الانغام العذبة والجميلة، وعندما يألف الانف شذى الزيوت المعطّرة، وعندما يصبح اللسان مدمنًا على عصير الاطعمة المدهن، والطيب المذاق، وأخيرًا، وعلى مر السنين، عندما تصبح حاسة اللمس واهية وضعيفة، بحيث أنها لا تعود تستشعر الآ الاقمشة الناعمة والخفيفة، عندها، من يقدر أن يقنعها، أن ما تنعّمت به، وتمتّعت به، ليس

حقيقيًا ولا منطقيًا، بل هو غير عقلاني، وعابر؟ من يستطيع أن يغلق الفم الذي بالنطق يحاجج ويعارض ويصر ان ما ذاقه، هو المتعة بعينها، ولا شيء سواها منظور أو غير منظور؟ ومع ذلك، فالذهن الشرير يعرف أن هذه الشهوة هي خاصية الكائنات العجماء، ولا صلة لها بجوهر الانسان. ومع ذلك، فالذهن نفسه، وفي أطوار العمر الاولى، استمتع، بمعيّة الحواس، بالملذات الدنيوية، وبالسذاجة التي عاش فيها منجذبًا إلى الملذات على أنها حسنة. ويجب ان يقال أن الحواس قيّدت الذهن كما بسلاسل حديدية. والذهن بات يعاني لا بل هو قلق، اذ بينما كان ملكًا على الجسد، صار عبدًا. وسواء طوعيًا أم كرهيًا، فقد انزلق الذهن إلى متعة الملذات الدنيوية المحسوسة.

ترى من يقنع الحواس؟ أهي خريطة الخيال؟ أليست خريطة الخيال نفسها مستعبدة وملطخة بالصور الشهوانية والاصنام (المعبودات) التي انطبعت على مر السنين بفعل الملذات الدنيوية؟ من يقنع الحواس؟ أهو مخدع القلب؟ واحسرتاه! القلب نفسه يعجّ بالشهوات الكثيرة وبالرغبات المتولّدة من الملذات الدنيوية. الملذات نفسها باتت ترغم الذهن والخيال والحواس وكل الجسد، للسير في ركب لذائذها.

وليس هذا فحسب، بل ان الشيطان نفسه ملك الملذات الجسدية، شرع يضغط على الذهن والقلب والحواس كل حين. ورغم انه بدون جسد، الا انه يستمتع بالملذات نفسها كما يقول الاباء القديسون. وهذه الملذات هي التربة والارض التي لعنت الافعى... وتراب الارض تأكلين كل أيام حياتك (تك ٣: ١٤).

وبعد طور الطفولة، عندما ينضج الذهن ويدرك من تلقاء ذاته او بعد السماع من الاسفار المقدسة وكتابات الاباء القديسين، ان البون كبير وسحيق بين الملذات الدنيوية الموروثة، وتلك الطبيعية، فماذا يفعل؟

الذهن، لكونه منطقيًا بالطبيعة، وحساسًا، ومحبًا للحق، لا يستطيع أن يحتمل في جسده أن تكون الحواس رازحة ومستعبدة للأمور الشهوانية. لا يستطيع أن يحتمل عبوديته إلى جانب الحواس، وان يكون عبدًا رغم قيمته الرفيعة كربّان وملك، لا يحتمل ان يكون محكومًا وهو حاكم، أو خاضعًا وهو امبراطور. لا يستطيع ان يحتمل مثل هذه الخسارة التي ستقوده في نهاية المطاف إلى الهلاك الابدي والضياع.

هنا لب الجهاد وموضوعه كما يقول ثيوذور الطاهر، الحكيم، والنبي: الذهن يطالب، ويرغب ان يثبت أنه خليقة الله وملك الجسد وحاكمه. وهو قادر بما فيه من قوة، وبإرادته ومعرفته، وبالتعاون مع النعمة الالهية، ان يستأصل كل العادات الصعبة والمستعصية التي اخذها عبر الحواس. من هذا القبيل، يستطيع الذهن أن يعتق الحواس التي ذاقت الامرّين من الاهواء، والتي اضحت بدورها مجلبة للموت.

يستطيع الذهن، وبسهولة، أن يخضع الاهواء إلى مشيئته. لهذا السبب، فالجهاد عظيم، لأن الذهن بالجهاد فقط، وعمل النعمة، يأتي إلى الحق. ولو أن النفس لم تخضع يومًا لأي كان، لكان بمقدورها أن تبقى نقية وطاهرة. ولكن منذ أن استعبدت إلى الاهواء، والى افعال الجسد، بقيود أقوى من رباطات نحاسية، فكم هو عظيم الجهاد من أجل كسر هذه الرباطات وذلك بغية تحرير الانسان الداخلي من عبادة الاشياء المادية، وبغية اقتناء العادات الحسنة؟ ترى كيف وبأي سبيل تتحقق حرية الحواس فتخضع للذهن؟ اسمع:

عندما يريد ملك أن يُخضع مدينة مسوّرة ومحصّنة جيدًا، فإنه يبادر أولاً إلى حرمان المواطنين من القوت. بهذا، يرغم السكان على

الاذعان والرضوخ لمشيئته. على النحو ذاته نعمل مع الذهن والحواس. لذا، على الذهن أن يقطع كل صلة له بالحسيات، وهذا ينسحب تدريجيًا على الملذات الدنيوية المألوفة، بحيث لا يسمح الذهن للحواس أن تتمتع بالحسّيات، وبالتالي، فإنه في وقت قصير، يصبح بمقدوره، أن يخضع الحواس لمشيئته. وأثناء ذلك، لا يبقى الذهن بدون حراك، فهو يتحوّل، بعد الراحة من عناء الاتعاب الجسدية، إلى غذائه العقلي الطبيعي الذي هو مطالعة الاسفار المقدسة واقتناء الفضائل، وحفظ وصايا الرب، والصلاة المقدسة، ومناجاة الخلائق العقلية، والهذيذ بالمبادئ المقدسة الروحية المضمّنة في كتابات الاباء الحاملي الله (ثيوفوري)، سيما الاباء الصحاة، وهي ما يعرف باسم (الفيلوكاليا)، والـ Evergetinos، والسلم إلى الله، وأعمال القديس سمعان اللاهوتي الحديث، وسواهم....

ويرى القديس باسيليوس الكبير انه من غير اللائق حقًا، ان يسمح الانسان لحواسه بالامتلاء من الحسيات، وبإعاقة الذهن وعرقلته في عمله الروحي. فكما أن الحواس علقت بفخ الملذات الحسّية، ليس في سنوات الطفولة وحسب، بل في تلك التي تليها أيضًا، فإن ذهننا واذهان كل الناس علقت بدورها بفخاخ هذه الملذات، ومنذئذ، بتنا نعاني الوانًا من الشقاء. لقد فقدنا جميعنا اللذة الحقيقية المغبوطة. وعندما لا تتحرر الحواس من الملذات الحسية، فالذهن بدوره لن ينعتق من الملذات، وذلك كي يعود إلى لذّته الحقيقية. ويستحيل تحقيق هذا بسبيلٍ، غير السبيل المذكور.

الفصل الرابع

القديس غريغوريوس اللاهوتي

الله، للأمور العقلية، هو كالشمس للأمور الحسية. وبينما تنير الشمس العالم المنظور، فإن الله يضيء العالم غير المنظور. من شأن الشمس ان تجعل الاجسام التي حولها، مثلها، هكذا، فالله يجعل الذهن إلهيًا أيضًا. وكما أن الشمس تتيح لنا امكانية للرؤية، وتتيح لغيرنا ان يكونوا مرئيين، وكما انها تبقى هي نفسها للذين يَرون ويُرون، وتبدو على أنها الافضل للذين يُرون، هكذا هوالله للذين يفهمون ويعقلون. فالقادرون على الفهم يُعطون القدرة للفهم. أما الذين يُفهمون، فيهبهم القدرة كي يُفهموا. الله نفسه هو المرمى الأخير لكل ما هو مُدْرك، وكل ميل أو رغبة تتوقف عنده، وتعجز عن تخطّيه.

الفصل الخامس

القديس باسيليوس الكبير

هل هناك ما هو أبهى وأجمل من الجمال الالهي؟ هل هناك ما هو اجمل من عظمة الله؟ أية رغبة في النفس قوية وعظيمة كالتي غرسها الله في النفس فجعلها نقية وطاهرة؟ النفس تصرخ برغبة حقيقية وتقول: هل أنا مجروحة بالحب؟

ان بريق الجمال الالهي لا يعبّر عنه، ولا يُوصف. ليس من كلمة تفيه حقه. وليس من اذن تقوى على استقباله وسماعه. لو أخذنا على سبيل المثال نجمة الصبح، أو ضياء القمر، أو نور الشمس، فهي جميعها فقيرة وواهية وتعجز عن تصوير البهاء الالهي. نحتاج إلى الكثير قبل أن ندرك المقارنة بين هذه وبين النور الحقيقي. ما ابعد قتام الظلمة عن ضياء وضح النهار!

وهذا الجمال، لا تراه العيون الحسية. النفس فقط، مع الذهن، يفهمان ذلك، فضلاً عن رهط القديسين الذين تلقّوا هذا الضياء.

وهذا الجمال الحقيقي المشوق إليه جداً، يراه من تطهرت اذهانهم. انه الجمال الذي يوشّح طبيعة الله المغبوطة والالهية. ان من يتطلّع إلى تألقه الخاص، وجماله الخاص، يتّحد بهذا الجمال المغبوط كما لو أنه صبغة يلوّن بها وجهه بإشراق. لهذا السبب فإن وجه موسى تمجّد أثناء حديثه مع الله. لقد اشترك موسى، لا بل شارك في هذا الجمال البهي.

الفصل السادس

القديس غريغوريوس النيصصي

من يّحدق في وجهه، ويظل بدون عشق وتوق لمثل هذا الجمال؟ ان جمال وجهه عظيم حقًا، لكن الجمال الذي يذوقه الذهن هو الأعظم. والصلة بين الاثنين هي أشبه بنقطة ماء بإزاء اليم الكبير، او هي شرارة صغيرة، وقبس نور، بإزاء باقات من الاشعاعات النورانية الهائلة. هكذا هي العلاقة بين الاشياء التي يُعجب بها الناس، وذلك الجمال الذي يحيط بالصلاح المطلق الذي يفوق كل بهاء وحُسْن.

الفصل السابع

القديس كاليستوس كسانثوبولس

يستحيل على الذهن أن يرتقي نحو الله، وان يبقى في الوجود، بدون محبة الله. من الرب ينبع كل جمال، وكل فهم يفوق الوصف والادراك. وبسبب البهاء الالهي، يكون الذهن أشبه بشبكة صيد عرضة للتمزق من جراء الصيد الوفير والسمك الكثير. وتتملّكه الدهشة والذهول من جراء معاينة الجمال الالهي الذي يفوق الادراك. ومن جرّاء هذه المعاينة يسكر الذهن وينتشي، كما لو بفعل الخمرة، وكالمجنون، يتجاوز ذاته.

الذهن يستجمع بالاعجاب قوته، ويستحيل أن يدرك ما يراه لأنه عاجز عن مراقبة الضياء الذي في الجمال الالهي. لذا فهو مقيّد بأغلال المحبة، ومتحرّق كما لو أن أحشاءه تتلظّى، وهي تطلب الماء.

يا رب، يا من هو بدء كل حسي وعقلي. أيها القدير. ان بدايتك لا بدء لها. أنت غير المخلوق الذي حدوده لا حدود لها، واللجة التي لا تسبر أغوارها. ان طبيعتك تفوق الطبيعة. وجوهرك يفوق كل مادي. انت غير مخلوق، وهيئتك لا شكل لها. أنت غير منظور. ومثالك أبدي ولا يضمحل. سكناك لا يوصف وغير محدود. معرفتك لا تسبر أغوارها. وكلمتك يتعذّر التعبير عنها. شروحاتك لا تفسر. وفهمك غير قابل للفهم عقليًا، ولايُدرك. مكانتك فوق كل شيء، واسمى من كل شيء. أنت الاعجوبة،

السلام، الشجاعة، المحبة، العذوبة، الغبطة، الثقة، الرجاء، الراحة والفرح، لكل الكائنات. أنت البهاء الوحيد والمملكة والحكمة والقوة. لهذا السبب، فيك البهجة عند من هو مدرك. أنت الراحة التي تثير الاعجاب للذين يعاينوك بفعل المشاركة في الروح القدس يا ايها الرب الذي يتعذر التعبير عنه.

الفصل الثامن

القديس اسحاق السرياني

أنت أيها المجاهد المقتدي بآلام المسيح، جاهد داخل نفسك كي تصبح اهلاً لتذوّق مجده. لأننا اذا تألمنا معه، ستتمجد معه. والذهن لا يتمجد مع المسيح الا اذا كان الجسد يشارك في آلام المسيح. لذا فإن من يبغض المجد الدنيوي، يصبح أهلاً للمجد الالهي، فيتمجد جسده ونفسه بآن معًا.

من حاز التواضع، هو بطبيعته جميل، لأن التواضع هو اجترار الذهن غير المادي لمحبة الله. ويقود التأملَ إلى هذه المحبة فهمُ الذهن للاسفار الالهية، وهذا من شأنه أن يحمي النفس من داخل ضد كل الافكار الشريرة. لا بل اكثر من ذلك، فإن هذه المحبة تبقي الذهن في الهذيذ بالامور الصالحة المستقبلة، كي لا يتيه في غبائه في خضم ذكريات الامور الدنيوية التي تهز تحركاته وتنقلاته، فينحدر إلى مستوى الرغبات والشهوات.

ويستحيل ان تنعتق النفس من شباك الافكار الصاخبة بدون فضيلة اللاقنية. وفي غياب سلام الحواس الجسدية، يستحيل أن تمتلك النفس ذهنًا سلاميًا ومسالمًا. بدون التجارب، يتعذر على النفس ان تقتني حكمة الروح القدس. وبدون المثابرة والتعب في المطالعات الروحية، لا يمكن أن تأتي النفس إلى تمييز الافكار. أما بدون سكينة الافكار، فلا يستطيع الذهن أن يبلغ أسرار الله المحتجبة.

ما هي طهارة الذهن؟

جواب: الطاهر الذهن ليس هو من لا يمتلك معرفة الشر، ولا هو من في الطبيعة في قامة الاطفال، ولا هو من لم يضطلع بعد بالشؤون البشرية المختلفة. طهارة الذهن هي التالي: التحليق في الامور الالهية، وهذا يتحقق بعد ممارسة الفضائل. ولا نستطيع أن نقول أن احداً بلغ هذه القامة بدون معاركة مع الافكار الشريرة. لأن من لا يعرف المعاركة مع الافكار الشريرة، هو إنسان بدون جسد. لذا فإننا لا نتجاسر وحتى الرمق الاخير أن نقول أن طبيعتنا لا تحارَب ولا تتأذى.

من علل اربع تفيض الافكار في الانسان:

١- من الارادة الطبيعية التي في الجسد

٢- من جرّاء تخيّل امور العالم الحسي التي يراها الانسان ويسمعها

٣- من استعدادات الذهن وضلال النفس

٤- من هجمات الشياطين التي تشن حربها علينا عبر الاهواء كلها.

لهذا السبب، فإلى ان يموت الانسان، لا يمكنه أن يكون بدون افكار وحروب، طالما هو في الجسد. ولكن اذا زالت احدى هذه العلل المذكورة قبل فناء العالم، او قبل موت الانسان، او اذا كان بمقدور الانسان ان لا يطلب حاجاته، وان لا يُرغم على طلب خيرات دنيوية... فاحكم انت بنفسك. ولكن اذا كان من السخف افتراض مثل هذه الافكار، لأن الطبيعة الانسانية بحاجة إلى خيرات العالم، عندها يترتب على ذلك أن الاهواء ستتحرك في الانسان العائش بالجسد، سواء اراد ذلك، او لم يرده.

لذا ينبغي على كل انسان أن يحمي نفسه. وهنا لا أقصد بعبارة «اهواء»، نوعًا واحدًا منها يتحرك علنًا وباستمرار داخل الانسان. ولا اقصد نوعين أيضًا، بل كل الانواع، لأن الانسان يحيا في الجسد. ورغم أن الذين أماتوا الاهواء بالفضائل، يُغاظون بالافكار والهجمات الآتية من العلل الاربع، الا ان هؤلاء لا يُهزمون، لأن القوة في داخلهم، ولأن ذهنهم اسير للذكريات الالهية الكلية البهاء.

سؤال: وبأي معنى تختلف طهارة الذهن عن طهارة القلب؟

طهارة الذهن شيء، وطهارة القلب شيء آخر. الذهن هو احدى حواس النفس، اما القلب فيحوي الحواس الداخلية، ويمسك بها. انه جَذْرُ الحواس (root). فإذا كان الجذر طاهرًا، تكون الاغصان طاهرة. ومن الواضح، تباعًا، انه اذا كان القلب طاهرًا، فكل الحواس تكون طاهرة. واذا كان الذهن نشيطًا بعض الشيء في مطالعة الاسفار المقدسة، ويتعب قليلاً في الاصوام والاسهار والسكينة، فإنه سرعان ما ينسى نشاطه السابق، ويصبح نقيًا، لكن هذه النقاوة لا تدوم. لأنه اذا تنقى بسرعة، فإنّه يتّسخ بسرعة. أما القلب فيتنقّى بالاوجاع والحرمانات، وتاليًا، ليس من السهل انفساده بالامور الصغيرة، ولا ارتعاده أمام الصراعات العلنية والعظيمة. فهو وحدة قوية متماسكة قادرة على هضم الطعام العسير الهضم للضعفاء. ورغم ذلك فإن نقاوة تأتي سريعة، سرعان ما تضحمل وتتلاشى. ونقاوة القلب تأتي بعد سلسلة من الاوجاع، وبعد فترة زمنية طويلة، وهذه النقاوة تكون بمنأى عن افكار الهجوم، لأن الله يؤازر القلب.

لله المجد إلى طول الايام أمين.

كتب صدرت حتى الآن

١ - اذهبوا بسلام

٢ - تفسير القداس الالهي للقديس نقولا كاباسيلاس

٣ - أقوال الآباء الشيوخ

٤ - الحرب اللامنظورة

٥ - اليقظة والصلاة

٦ - المقالة النسكية للقديس مكسيموس المعترف

٧ - ٤٠٠ قول في المحبة للقديس مكسيموس المعترف

٨ - الصوم وتجارب الرب على الجبل

٩ - نعم أم لا للمناولة مع الطوائف الغربية

١٠ - نعم أم لا لكهنوت المرأة

١١- الرجل والمرأة من المنظار الارثوذكسي

١٢ - الجسد والشهوة واللباس

١٣ - هل يلغى العهد القديم

١٤ - غاية الحياة التأله

١٥ - النوس او الذهن